النشر لمن يستحق

رواية

أقداح الكريستال

د. أحمد الصايغ

د. أسماء عمر

كيان كورب دار ليلى

د. أحمد الصايغ   د. أسماء عمر

"أقداح الكريستال"

كيان كورب للنشر والتوزيع

(دار ليلى)

الكتاب:

أقداح الكريستال

المؤلفان:

د. أحمد الصايغ

د. أسماء عمر

الغلاف:

محمد محمود

الإخراج الفني:

حسام سليمان

التدقيق اللغوي:

محمد عبد الغفار

★★★

إدارة التوزيع:

عبد الله شلبي

الإشراف العام:

محمد سامي

★★★



رقم الإيداع: 21761/2011

الترقيم الدولي: 978-977-6386-82-2

المهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11

هاتف: 33370042 (02) (002) - 3885295 (012) (002)

البريد الإلكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

د. أحمد الصايغ
د. أسماء عمر

"أقداح الكريستال"

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلى



مقدمة الناشر

كانت دار ليلى (كيان كورب).. منذ ما يزيد على أربع سنوات.. قد أطلقت مشروعها (النشر للجميع.. ولمن يستحق) الذي نال استحسان الكثير من المواهب وقتها.. التي أصبح البعض منها كُتابًا محترفين بعد ذلك.. أو توجهوا لمشروعات ثقافية متنوعة.. لمعوا من خلالها.

ومع ازدياد كمِّ الأعمال التي يبدعها الشباب –خاصة بعد ثورة 25 يناير العظيمة– وفي ظل الظروف الحالية التي تمر بها مصر.. أصبحت سوق النشر والتوزيع في حالة ضعيفة.. خاصة مع استمرار ازدياد أسعار الخامات.. وإحجام كثير من دور النشر عن ممارسة نشاطها بتوسع.. وضعف القدرة الشرائية للقارئ المصري.. كذلك صارت عملية النشر محفوفة بالمخاطر.. التي تخيف طرفيها –الناشر والقارئ– على حدٍّ سواء.. وكانت الدار نفسها من الدور التي تأثرت – بشدة– اقتصاديا.. ومع اضطرارها لإغلاق باب تقديم الأعمال.. فكرنا في

حل بديل.. هو "النشر لمن يستحق".. وتطورت الفكـرة كـثيرًا.. إيمانًـا من دار ليلى (كيان كورب) بأهميـة الحركـة الثقافيـة.. وحرصًا منهـا على استمرارها في دورها.. وإيمانًـا منهـا -كمـا عهـدتموها- بالـشباب الموهوب.

لذا فقد قررت الدار إحياء مشروعها "النشر لمن يـستحق" لفـترة محدودة هذا العام.. وعلى مراحل.. وبشكل استثنائي.. لعل ذلك يحرك المياه الراكدة.. آملين أن يحقق ذلك مجموعة نتائج.. على رأسها:

- توفير الفرصة للراغبين في النشر أن ينشروا أعمـالهم.. وأيـضًا عبر دار نشر لها اسمها.. ولله الحمد.. مع كبار الكتاب.

- تحقيق الأمان الاقتصادي للكاتب؛ حيث يضمن عودة ما دفعه بعد عام واحد.. مع هامش ربح خفيـف.. إضـافة إلى الغـرض الأسمـى.. وهو أن يرى أعماله منشورة.

- تحقيق المصداقية والوضوح بين الناشر والكاتـب.. عـبر شـكل وبنود العقد الذي يعتمد على حماية الملكيـة الفكريـة.. كمـا هـي عـادة عقود "دار ليلى".

- توفير عناوين جديدة ذات قيمة للسوق المصرية.. الأمر الذي يخدم العملية الثقافية.

ندعو المولى -عز وجل- أن يكلل مجهوداتنا بالنجاح.. وأن ينال مشروعنا رضاكم.. وكلنا ثقة أن كثيرًا من الأسماء التي تنشر من خلال هذا المشروع ستصبح -مثل سابقيها- بإذن الله من اللامعين في مجالات ثقافية عدَّة.

الناشر



إهداء

إليها..

منها بدأت و لأحضانها الرجوع..

تفيض عينايّ عشقاً بالدموع..

سبحانك لا همَّ لي إلا رضاك ثم رضاها..

فاحفظ لي أمي يا مولاي..

* * *

و إلى من يسكن القلب رغم الغياب..

إلى من ترك بالقلب أعذب الذكريات..

أهديه ثمار أشجاره التي رُويت بعظمته..

و أدعو الله أن يجمعني به في فسيح جناته..

إلى والدي الحبيب..

رحمه الله.



تقديم

"كونشرتو" آلتَيِّ "التشيللو" و"الفيولينة"

تغمرني الغبطة وأنا أقدم عملاً مشتركًا للأديبين الطبيبين أحمد الصايغ وأسماء عمر.. سمياه "أقداح الكريستال".

وإبداع أديبين في صياغة عمل واحد تجربة طريفة تذكرنا بمغامرة الرائدين د. طه حسين وتوفيق الحكيم، عندما كتبا معًا نمطًا فريدًا من الرواية، هو "قصر شهرزاد"؛ حيث تبادل الكاتبان فصول الرواية.. وكنا نلحظ بوضوح عمق طه حسين ورصانته، ومرح توفيق الحكيم ورحابته، في جو يمزج الأسطورة بالسريالية.

في العمل الذي أشرُف بتقديمه، نجد الكاتبين قد تبادلا الدورين؛ إذ قامت د. أسماء بتقمص دور د. إيهاب، في مونولوجات تفيض بالشاعرية الممتزجة بالشك الوجودي، تسترجع الأحداث في إطار

أدبي أقرب إلى الشعر المنثور، تشبه مونولوجات هاملت التي تمزج الحكمة بالهذيان، والدوران في فلك الذات، وتمثل شخصية عدمية يستغرقها البحث عن المطلق.. متناسية الواقع القريب الذي قد يحمل قدرًا كبيرًا من السعادة.

بينما غاص د. أحمد في شخصية د. سارة في "ديالوجات" من طرف واحد؛ فهي أيضا مونولوجات سردية في صورة خطابات إلى الأخت البعيدة فاطمة، شقيقة الروح، التي يزيد بُعدُها المكاني الشعورَ بالافتقاد، وعلى الرغم من ذلك فهي الملاذ دائمًا، هي الذات الثانية، أو لعلها هي الأنا العليا (في ثلاثية فرويد) التي تحاول الأنا أن تستلهم منها الصواب.

عايَشَ كل من الكاتبين دور نقيضه ببراعة، وغاص كلاهما في المشاعر العميقة للرجل والمرأة، وعزفا معًا كونشرتو لآلتين وتريتين: "التشيللو" المفعم بالشجن الشجيِّ، الذي يمثل الرجل بآلامه النبيلة، عزفت عليه أسماء.. وآلة "الفيولينة" التي تنساب منها الرقة والوداعة، التي تمثل المرأة العاشقة الملتاعة، عزف عليها أحمد.. واشترك العازفان، كل منهما بلحن منفرد، في عمل سيمفوني بديع،

يتضافر فيه اللحنان، ويتقابلان، ويتعارضان، يعلوان، ويحلّقان، ثم يهبطان للعودة مرة أخرى للحوار والتناغم، حتى يصلا إلى الذروة.. والذروة هنا هي عود على بدء، في الخطاب الأخير الذي سطرته سارة - على خلاف الخطابات السابقة - إلى إيهاب، وكأنما كتبته لنفسها لتعرض الصراع في داخلها، بين المطلق المستحيل (إيهاب)، والنسبي المتاح (معتز).

نجد في هذا العمل تحليلاً للحب وارتباطه بالاحتياج؛ فسارة تقدم دائمًا العون لحبيبها المرتجى إيهاب، وهو لا يشعر بعمق حبها له، ولا يفكر في أنها تحتاج إليه وإلى مشاعره.. بينما هو يحب علا التي لا تحتاج إليه فتهجره إلى من يقدِّم لها ما تريد. وفي الطرف الآخر نجد معتز يقدم العون المعنوي إلى سارة، خاصة بعد إصابتها بمرض مزمن عضال لا تدرك عواقبه..

إنها أقداح من الكريستال الشفيف المتألق، يتبادلها الرباعي المشترك في المعزوفة مع بقاء الحوار والتناغم أساسًا بين العازفَين الأساسيَّين سارة وإيهاب - أو أحمد وأسماء - وتنتهي القصة بمونولوج

في صورة خطاب يستعرض الصراع بين ما تحبه سارة وما تحتـاج إليـه، بين المطلق والنسبي، بين المثال والواقع.

إن هذا العمل تجربة ثرية جديرة بالإعجاب، وأثق أن كـلا مـن الكاتبين سوف يصير نجمًا متألقًا في حياتنا الثقافية.

أ. د. رفيق محمد خليل
أستاذ الجراحة العامة وجراحة الوجه والعنق
بكلية الطب جامعة الإسكندرية
نقيب الأطباء بالإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

على سبيل التقديم

ربما أتى حين من الدهر لم يخطر فيه على بال معظم المتشائمين منًّا أن مفهوم الحب وتحولاته - من هجر وحرمان وفتور - له في الحياة صراعات مريرة.. تؤثر سلبًا وإيجابًا على هذا الكائن العجيب.. وظروفه الحياتية.. من تمرد وخضوع أحيانًا.

نحن - عزيزتي القارئة، عزيزي القارئ - أمام "جين" جديد من الكتابة.. عبارة عن دراما تشويقية، رسمتها لنا أنامل الأديبة الطبيبة الشابة أسماء عمر، ومشاعر الأديب الطبيب الشاب أحمد الصايغ بعنوان "أقداح الكريستال".. مع تبادل الأدوار في سلاسة ووضوح.. ومزج الحقيقة بالخيال.. في نسيج أدبي قوي مكتمل.

رسمت "أسماء" شخصية "إيهاب".. وبرعت في فرز موهبتها الأدبية الجياشة في تقلبات الشخصية المزاجية.. ورصدت لنا دراما متغيرة.. تغوص في أعماق القارئ بخنجر البراءة والقسوة.

أما "أحمد" فيلعب دور "سارة" الرقيقة.. التي يدور حولها العمل الأدبي.. وهو دور مليء بالمفاجآت والمفارقات والغرائب التي تلهب القارئ وتثير فيه توجسات كثيرة.

كما يبدو أن شخصية "فاطمة" - التي تبعد آلاف الأميال عن عروس البحر - لها تأثير جوهري على الرقيقة "سارة"؛ فهي مرآتها الصدوق.

إننا إزاء رصد غني بالانفعالات.. مائج بالاضطرابات والتوترات لقلوب العاشقين.. وأصالة ابن البلد.. وبريق معدنه حيال المِحن.. عن شخصية دكتور "......".

كما يسقط القناع المزيف الذي كانت تتلبسه الدلوعة "......".

تسبح خيوط الخيال.. ويظهر شعاع الأمل من جديد.. وتلح علينا خواطر الحكايات.. لنخرج بعمل فني يسطر أسراره الخاصة..

ويدفعنا إلى قراءته دفعًا.. والاستمتاع به أيَّما استمتاع.. ليضعنا على طريق طويل من كتابات أخرى متقدمة ومتفردة.

منى عبد الفتاح الديب

أديبة

ومحررة صحفية سابقا

بورسعيد



الفصل الأول: بداية ونهاية

أهرب من نفسي كثيرًا هذه الأيام..

ألوذ بأفكاري إلى كنف النوم المتواصل..

لست أدري سبيلاً آخر..

أنشد السلوان والنسيان..

يرتفع الرنين الرتيب..

هذه هي..

ليس من أحد سواها..

أهديته تلك الموسيقى..

أتجاهلها لأول مرة في حياتي!!

وأتعجب من نفسي!!

لقد كنت دائمًا أنتظر هذا الرنين بفارغ الصبر!!

يتكرر الرنين كل بضع دقائق..

وأنا أتصنع النوم..

أنتظر أن تتوقف..

تمرّ قرابة الساعة وأنا على ذاك الحال..

في تثاقل أمد كفي..

ألتقط الهاتف..

وأتأمل اسمها المضيء هناك..

"علا"..

اسم لطالما نسجت الأشعار حوله..

لكنني الآن أصبحت زاهدًا فيه..

أضع الهاتف من يدي..

وأشحذ قواي الخائرة..

أقف أمام نافذتي..

أتذكر آخر كلماتنا..

العجيب.. الذي حفرته بقلبي

حتى سألتها وأنا لا أدري هل ستصدقني قولاً:

"هل أحببتني يومًا"؟

وجاء جوابها مراوغا..

وصدمتني كلماتها

أين هو الحب في تلك الكلمات المادية؟

أصيغ سؤالي من جديد:

"هل تكونين لي يومًا"؟

وتحطم كلماتها قناعتي وإيماني بالحب

ليس ما تتحدث عنه حبًا..

أسألها.. أن تصف ما كان لسنوات يجمعنا!

فتجيبني بأني توأم روحها..

لن تقدر على العيش من دوني..

ويفزعني أنها تبرهن على قدرتها على العكس..

أبتعد..

لحظات وأعود..

أسألها:

"ماذا عن الغد؟"

"هل سيكون لي مكان؟"

وتجيبني نظراتها بعكس حال لسانها..

تنتصر كرامتي لرجولتي..

وأغادرها..

لكنها ترفض أن تبتعد تمامًا..

تجذبني دائمًا إليها..

تمنعني من نسيانها..

وتتمسك باسم صداقة قديمة..

وأعترف..

أنني يومًا كنت أنشد صداقتها..

واليوم أزهدها..

لست أبغي سوى تأكيد أنها تحبني..

ولست أبالي كثيرًا بالعواقب..

* * *

ينتزعني تنبيه قدوم الرسالة من شرودي..

أقرأ كلماتها الباكية..

تريدني بجوارها في أزمتها..

لم أتخلَّ يومًا عن شخص احتاجني!!

وبخاصة لو كان عزيزًا..

للحظات تثور كرامتي داخلي..

تحثني لأتمرد على ندائها الضعيف..

لكن ما زال لها في قلبي بقايا حنين..

وما زالت لي مروءة رجل شرقي..

* * *

عزيزتي فاطمة..

كم أوحشتني يا فاطمة واشتقت لليالي السمر معك.. أذكر أيام كنت تتركين فراشك وتأتين بجواري مريحة رأسي على صدرك الحنون فتدفنين فيه همومي ومشاكلي وكأنني ابنتك على الرغم من فارق السنوات الثلاث التي تفصل بيننا..

طال غيابك يا فاطمة على الرغم من أنه لم يمض على سفرك مع محمود سوى أقل من عشرة أيام.. لكنني أشعر كأنني وحيدة في صحراء جدباء على الرغم من أن البيت عامر دوما كما تركتِه.. حتى أمي تسخر من حزني واكتئابي طوال الوقت وأشعر كأنها تعايرني بوحدتي وغربتي على الرغم من أنها تعلم مدى تعلقي وارتباطي بك..

لم أجد أمامي سوى الورق كي أبثه شوقي وحنيني إليك.. أعلم أنها طريقة قد عفى عليها الزمن.. إلا أنك تعلمين جهلي وقلة حيلتي أمام الكمبيوتر.. علمتني كل شيء يا فاطمة ولم تعلميني كيفية استعمال ذلك الاختراع المسمى البريد الإلكتروني.. أخشى أن أزيدك همًا وحزنًا فوق همك في الغربة واستعدادك لبداية حياة جديدة مع زوجك في دبي.. لكن هذا قدري وقدرك.. وليتني عرفت أنه قد يأتي اليوم الذي أواجه فيه تلك الدنيا الكريهة وحدي دون سند أو صديقة ودونك..

خطاباتي إليك هي المتنفس الوحيد لي.. سأعود في المساء وأغلق الباب خلفي وأندس في فراشك الوثير متدثرة بغطاء الفراش الزهري الخاص بك ذي الطيور الخرافية المرسومة عليه.. وأضع وسادتك المريحة خلفي كما اعتدتِ أن تفعلي وأكتب إليك كأنك جالسة بجواري أشعر بدفء جسدك الجميل في جانبي الأيمن وأقص إليك كل ما مرَّ بي وكأنك معي..

لقد مضى الوقت سريعا على الرغم من أنني لم أروِ لك أي شيء بعدُ.. للأسف مضطرة إلى القيام مبكرًا من أجل ذلك الاجتماع الأسبوعي السخيف مع السوبرفيزور "Supervisor".. أنت تعلمين كم أمقته وقد بدأت بالفعل في البحث عن شركة أدوية أخرى.. لكنني لن أستقيل قبل أن أجد فرصة أفضل..

سأتركك الآن لأنعم بسويعات قليلة قبل الاجتماع وسألقي ذلك الخطاب في أقرب صندوق بريد في الصباح ولو أنني لم أحكِ لك ما لاحظته اليوم.. أتذكرين ذلك الطبيب الذي حدثتك عنه من قبل؟ فلأجعلها في خطاب الغد كي أزيد اشتياقك.

☺ أختك ومعجبتك الأبدية

سارة

* * *

الفصل الثاني: زمام القلب

أهرع إليها..

وتستقبلني دموعها..

ويرق قلب كنت أُقسِّيه عليها منذ أيام..

أهدئها وأستمع إليها..

وأساعدها..

وتهم بالمغادرة..

فأستوقفها..

في محاولة أخيرة لترميم صدع صنعته بقلبي..

وتصرعني كلماتها اللامبالية..

* * *

لا شيء يضاهي الألم الذي أشعر به الآن..

كأن الروح تفارقني..

ليت الروح تفعل..

فذاك سيحلل فراقي لها..

عاهدت نفسي أمام قلبي أن أحبها طالما أنفاسي تتعاقب..

لكنها تجبرني على الحنث بوعدي..

أبحث عن وجودها في حياتي..

فيؤلمني الصد الموزون..

تعبث بي..

تلاعب أوتار القلب..

تهجر وتعود كيف تشاء..

يشفع لها حبي..

تعرف أنها تمسك بزمام قلبي..

تقودني لهاوية الجنون..

تأبى أن تعتقني منها..

وتأبى أن تروي عطشي إليها..

أصبحت أشتاق ليالي الحيرة..

قبل أن أصرح بحبي لها..

فقد كان عذابي وقتها جميلاً..

اشتهيت السهر أحلم بعيونها..

كنت أرسمها ملاكاً..

لطالما غفوت أحلم بلقياها..

والآن يتصارع غضبي مع حنيني إليها..

هل أظل على عهدي لقلبها..

أم أغادر القلب الذي هواها؟

* * *

عزيزتي فاطمة..

أعتذر عن تأخري عن الكتابة إليكِ ليلة أمس.. لكن ها قد عدت وأرى آذانك المصغية أمامي تكاد تلتهم وجهي كلّه شوقًا ولهفة..

أتذكرين إيهاب أم أراكِ قد نسيتِه؟ ذلك الطبيب الشاب الذي حدثتك عنه قبل شهرين كاملين من زفافك.. تذكرين يوم عُدت إلى المنزل ولم تفُتْ ابتسامتي الصغيرة على عينيك الخبيثتين اللتين تعلمان بواطني دون أن أنطق بحرف.. يومها سحبتِني من يدي وجذبتِني جذبًا نحو غرفتنا مُلقية ثقلِك فوقي على الفراش وسألتني عما بي؟

في البداية حاولت الإنكار وأخبرتك أنه لا شيء غريب.. إلا أنني لم أستطع الفرار من أسئلتك المُلِحة وآثار أصابعك الموجعة على ساعدي فأخرجتِ مفتاح دهاليز جوانحي الذي لا يمتلكه غيرك وسبرت أغواري كما تفعلين دومًا..

أكاد أراك تتعجلينني وتجري عينيك الأثيرتين فوق الحروف رغبةً منك في الوصول إلى الجزء الجديد.. الحقيقة يا فاطمة أنني لم أروِ كل ما سبق – على الرغم من علمي بكامل معرفتك به – إلا رغبةً مني في استجماع شجاعة مفتقدة ولملمة مشاعر مضطربة وكفكفة دمع مُوشك على الانهمار كزخات مطر يناير الباردة التي أسمع صداها الآن ترتطم بسطح النافذة الخارجي فيكثُر قلبي توجسًا وخيفةً وأزداد انغماسًا في الفراش وانكماشًا حول نفسي..

لم يكن إيهاب الذي رأيته أمس الأول بإيهاب الذي اعتدته..

تذكرين ملامحه كما وصفتها لك؟

شعره المصفف إلى اليمين بعناية فائقة قد انتثر على الجانبين بلا نظام في غير تهذيب.. قد استطالت شعيرات ذقنه ونمت فتخلى عن لحيته الصغيرة المحددة بعناية على جانبي فمه والمتصلة بشعيرات شاربه والتي أعطته عمرًا ووقارًا أكبر من عمره ورجولة تهفو لمرآها قلوب العذارى الغضة.. بل والأكثر من ذلك كله عيناه العسليتان القويتان قد ضعفتا وتجمعت حولهما هالات سوداء أوحت بطول السهر وشقاء القدر وعسر المنتظر..

وددت أن أسأله عما به ولكن الكلمات قد توقفت على حافة شفتيَّ وكأن لساني قد تحول إلى حجر أصم لم يمسه ماء منذ عقود ولم أنطق سوى بكلمات قليلة هي كل ما احتجته للتعريف بالدواء الجديد وهو ينظر إليَّ بعينين زائغتين لا تعيان شيئًا مما أقول ويصدر همهمات متكررة بين الفينة والأخرى..

في الحقيقة شعرت بالقلق تجاهه ووجدت نفسي أستوقف الممرضة قبل المغادرة وأسألها عما إذا كان مريضًا أو قد تُوفي قريب له.. فجلدتني بعينيها القاسيتين كألف سوط وسوط. ثم أجابت بالنفي دون أن تزيد حرفًا..

هل أخطأت يا فاطمة بالسؤال عنه؟ في النهاية هو طبيب ناجح من ضمن العشرات الذين يتمنى أي مندوب أدوية يحترم نفسه أن ينال رضاهم فيتذكرونه ويكونون سببًا له في الحفاظ على وظيفته والنجاح فيها..

أشيري عليَّ.. أنا بانتظار رأيك..

أختك ومعجبتك الأبدية..

سارة

* * *

الفصل الثالث: إلا أنا

تتحدث أمامي عن منتجات شركتها..

وأنا أكاد لا أسمعها..

لست أهتم الآن إطلاقًا..

فبالي مشغول..

لكن لم يفتني قطعها لكلماتها عن الدواء..

والتزامها الصمت..

ألتفت إليها..

فألمح نظرتها المحرجة..

وأدرك أنها شعرت بعدم مبالاتي..

أفكر.. هل يجب أن أعتذر؟

لكنها تسرع مغادرة وهي تتمتم بسلام مضطرب..

* * *

يأتي معتز زميلي في العمل..

يسألني ممازحًا:

متى أصبح طبيبًا بدلاً من حبيب؟

أعرف أنه يؤنبني لأنني لم أفعل شيئًا اليوم.

لكنني لم أستطع البقاء في المنزل..

فالتفكير فيها يحتل حياتي..

يجذبني من ذراعي..

مجبرًا إياي على الالتحاق بالعشاء المتواضع في حجرة التمريض..

تشم من خارجها رائحة الطعام النفاذة.. والضحكات الصاخبة..

أحاول التملص منه..

لكنه يدفعني دفعًا داخل الحجرة المزدحمة.

تسألني إحدى الممرضات بتهكم:

"أين هي دكتورة علا؟ لِمَ لم تأتِ معك اليوم؟"

أرمقها بحدة.. ولا أجيب..

فتجيب أخرى بخبث:

"مؤكد عرفت أنه يعبث خلف ظهرها"..

وتعج الغرفة بالضحك..

ولوهلة هممت أن أدافع عن نفسي..

لكن أأبرئ نفسي وأدينها؟

لست أنا الرجل الذي يتحدث عن فتاة بسوء..

ألتزم الصمت..

وتسألني إحداهن بمرح:

"كيف حال دكتورة سارة؟"..

أسألها بضجر:

"ومن تكون سارة؟"..

ترد أخرى:

"هن كثيرات بالتأكيد.. معذور يا بنات سيذكر من أو من؟"..

أبتسم بسخرية بدوري.. فأنا لم أعرف في حياتي سواها..

هنا يتدخل صديقي:

"لماذا الدكتورة سارة بالذات؟"..

تجيب الممرضة:

"لقد سألت عن دكتور إيهاب شخصيًا"..

ويهتف صديقي:

"معقول؟!"..

أنتبه للهجته الجدية.. فأسأل بعجب:

"من هي سارة؟"..

يرتفع حاجبا صديقي ينظر لي باستنكار:

"كل طبيب هنا في المشفى يعرف سارة.. ويتمنى أن يحدثها"..

أرد في عدم اهتمام:

"إلا أنا"..

* * *

عزيزتي فاطمة..

حزينة أنا منك ويملأ قلبي الشجن في انتظار خطاب تأخر كثيرًا ورأي اشتقت إليه.. ألم يَكفِكِ صدر أختك الصغيرة المشتعل كمرجل ضخم لا تطفئ ناره الماء ولا يخمدها التراب؟ أتزيدين عليَّ بتجاهل غريب لا أعلم مبرراته وأنا في أمس الحاجة إليك؟

أنت لا تشعرين بما أشعر به يا فاطمة.. منذ اللقاء السابق وكأنني قد انقلبت شخصًا آخر ويساور قلبي الوجِل شعوران متناقضان يجعلان حياتي قطعة من جهنم دون أن تأخذك بي شفقة ولا رحمة.. شعور بالقلق الغامر يكاد يظهر على ملامحي في كل تصرفاتي وينضح على أفعالي فيصيبها بالخرق.. لم أشعر قط بمثل ذلك الإحساس وكأنني خائفة على نفسي من خطر قريب غامض.. لكن ذلك القلق كان منبعه هنا بين جوانحي ومصَبه هناك في أعمق أعماق قلبه.. خائفة أنا عليه وتكاد دموعي تكسر حاجز الكبرياء الواهن فتدفعني دفعًا إلى الهرولة إليه والاطمئنان عليه..

أراك تظنين أنني أبالغ.. لكني لم أعتد الكذب أمامك بل ألقي بكل مخاوفي بين أحضان فاطمة علها تنجدني من هم وبأس يوشكان على الفتك بي..

الشعور الآخر القاتل هو شعور بالندم والإحراج البالغين.. وذلك الشعور حقيقةً هو الذي يمنعني – حتى الآن – من دخول المستشفى ثانية والطرق على باب عيادته.. لست أدري كيف واتتني تلك الجرأة الحمقاء كي تجعلني أسأل المرضة عما به وأتحمل نظراتها الحاملة قنطارًا من مكر

وريبة يكفيان لإغراق مدينة.. كان أكرم لي أن أسأله هو.. بل كان الأجدر ألا أسمح لنفسي الأمَّارة بالسوءِ بالاستفسار من الأساس وهو حتى لم يُحمِّل نفسه مشقة النظر إليَّ.. توشك أذناي على سماع نميمتها الخبيثة مع زميلاتها وكيف تروي قصصًا خرافية عني لم تحدث قط.. ماذا سيقول هو إن سمع مثل تلك الكلمات عني؟ بل ماذا أقول عن نفسي إن تناقلت ألسنتهن الملعونة سيرتي بسوء وأنا الذي أغض بصري حياءً وخجلاً إن خاطبني رجل؟

أخطأت أنا وعَظُمَ ذنبي ويكاد عقلي ينفجر من كثرة التفكير شاعرة بوحدة وكآبة خرافية.. وأعدو حين أسمع جرس الباب أملاً في رؤية ساعي البريد حاملاً فرجًا قريبًا ورأيًا سديدًا..

أريحيني أراحك الله..

أختك المشتاقة لرأيك..

سارة

* * *

الفصل الرابع: لماذا تغيرت؟

ألمحها قادمة..

أدير لها ظهري مكملاً حديثي مع زميلي..

كأنني لم أرها..

تلقي سلامًا سريعًا..

وتمسك بكُم معطفي قائلة إنها تريدني لحظات..

أخلص معطفي منها..

قائلاً بصرامة إنني مشغول..

ترتسم الدهشة على وجهها ووجه معتز..

لم يعتد أحدهما أن أرفض لها طلبًا..

تسألني بضيق.. متى أنتهي مما يشغلني!

أجيبها دون أن أنظر إليها:

"ليس اليوم إطلاقًا"..

وأكمل في سري:

"ولا أي يوم آخر"..

وأعود لأكمل حديثي مع معتز من حيث توقفنا..

وتغادر هي غاضبة..

* * *

مرت أربع ساعات من هذا الدوام الليلي الممل..

أسمع صوت الكعب العالي يمزق سكون الطابق النائم..

شعور بداخلي يخبرني أنها هي..

علا..

أطلب من زميلي أن يناولني مرجعه..

وأفتحه أطالعه وهي تخطو للحجرة..

أتشاغل عنها وهي تسأله عن حاله..

كأنني لا أراها..

تطلب أن تحدثني..

لم أقوَ على إحراجها مرة أخرى..

نقف بالخارج..

تسألني: "لماذا تغيرت؟"

"لماذا تبتعد؟"

أستمع إليها طويلاً متأملاً إياها..

وكأنني أراها لأول مرة..

أين انفعالات وجهها وهي تتحدث؟!

متى يضرج وجهها بحمرة الخجل؟!

متى تبكي لأجلي.. لحزني؟!

هل أفسدت زينتها المنمقة يومًا بقطرات الدموع؟!

هل تحمل بداخلها أي مشاعر؟!

تسألني بحدة.. عن سبب صمتي!

أخبرها أن رأيي لن يعجبها..

لكنها تصر على أن تعرف..

أخبرها أنني كنت أحمل لها حب رجل يتمنى أن تصبح حبيبته زوجته..

وكنت أعاملها على هذا الأساس..

وما دام الوضع لن ينتهي بالزواج..

فيجب أن نغير مسلك تعاملنا..

تصمت طويلاً..

تسألني: "لماذا تقول إنه لن ينتهي بالزواج؟ الله أعلم"..

أستشيط غضبًا.. أطلب منها إجابة.. بنعم أو لا.. هنا والآن..

لكنها لا تجيب..

فأغادر..

* * *

في هذه اللحظات بالذات..

قررت أنني سأحب أخرى..

لست أنا من يذل نفسه في حب من لا تحبه..

أم أنني لا أستحقها؟!

من أنا لأنالها؟!

طبيب في مقتبل حياته..

لست ثريًّا كما تريدني هي أن أكون..

ولكن..

هل تقبل سواها بي؟

تتزعزع ثقتي في نفسي..

لكنني لست ملك يمينها..

ولن أكون رهن إشارتها..

سأحب سواها..

وسأخرجها من قلبي للأبد..

* * *

فاطمة..

سَرَّني السِجل الضخم الذي وصلني منك والمسمى مجازًا خطابًا.. بقدر ما أحزنني.. سعدت بكل كلمة كتبتِها إليَّ وأعدت قراءة صفحاته التسع ثلاث مرات كاملة مستمتعة بروعة خطك المنمق وشذا عطرك الشانيل المميز المنبعث منه معيدًا لحياتي بهجة طالما افتقدتها.. وأقلقتني أعراض دوارك المزمن وسخطت على رفضك الغريب الذهاب للطبيب..

وعى عقلي كل حرف خطَّته أصابعك النحيلة فوق الورق لبني اللون المُزيَّن على أركانه بمُلصقات شخصيات الرسوم المتحركة المحببة إليَّ ووجدت نفسي دون تفكير أُقرُّه بأعماقي وأنسج أحرفه بخيوط من فضة على ثوب عقلي الحائر الشارد.. ثم أضم خطابك إلى صدري وأنام رائقة البال مرتاحة الخاطر لأول مرة منذ زمن بعيد..

ولكن حدث ما لم أتوقعه وخالف تفكير البشر المحدود..

ولعل في ذلك حكمة من البارئ بأننا مهما تخيلنا أو حلقَتْ بعيدًا بنا الأفكار فلن يمكننا أن نتوقع قدرًا قد وضعه من لا تأخذه سنةٌ ولا نوم قبل خلقه للسموات والأرض..

أفتح دولابي فأتناول ملابسي ونظارة الشمس العملاقة التي تخفي أكثر من نصف وجهي الذي تدعينه دومًا بالطفولي وأضع موضعهما قلبًا

مُتيمًا وعقلاً يتيمًا وأقف أمام المرآة محاولة رسم ابتسامة عملية على شفتين مرتجفتين من فيض مشاعر متداخلة..

ولم يمض وقت طويل إلا ووجدت نفسي واقفة أمام المستشفى أحاول استنشاق شهيق بارد لإطفاء نار استعرت في داخلي فأخطو خطوات أحاول أن أجعلها مُتجهة نحو محراب الثقة فتحيد عنه وأتجه نحو باب عيادته لامحة نظرات متلصصة من الممرضة وشبه ابتسامة ساخرة على جانب فيها الأيسر فأسألها في جدية عنه فتومئ برأسها في خبث وهي تفتح باب غرفة عيادته مستفسرة في خبث إن أردت تناول شيء فأرفض في لباقة لاعنة نفسي ألف مرة على ذنب اقترفته بتُّ مستعدة لأداء صكوك الغفران تكفيرًا عنه..

يلمحني فيقف وألمح عينيه الواهنتين فتضيق عيناي تأثرًا وأحمد ربي على ارتدائي لنظاري الداكن الذي يحجب عينيَّ عن الناظرين.. يهم بمد يده مصافحًا فأحييه بتمتمة خافتة وأجلس فيعدل عن أفكاره.. أدفن رأسي في حقيبتي البنية الكبيرة محاولة إخراج بعض الملفات الدوائية وعينات العقاقير فيفاجئني بكلمته: "أنا آسف"..

تتجمد يداي لثوانٍ شعرت وقتها أنها دهور وبذلت مجهودًا أسطوريًا لمحاولة رفع رأسي والابتعاد عن عينيه العسليتين كلون الشاي في

فنجان من الكريستال النقـي الـشفاف.. شـاعرة أنهمـا تخترقـانني اختراقًـا فتمنيت أن أخصف عليَّ وقتها من أوراق الشجر كما فعل الأولون..

أسأله بصوت خافت عما يعتذر فلا يحيد بصره عن عيـنين مغطيـتين ويجيبني عن طريقته في المرة الأخيرة وحديث آخـر كـثير لمـا تدركـه أذنـاي المنشغلتان بنداء داخلي مجهول بأن أصرح له بكل ما يعتمل بداخلي..

تبًّا لك من قلب جامح لا يحكمك لجام وأنت سوء المطايا..

أحاول أن أتفوه بكلمات لم تتجاوز شفتيَّ فتخـرج بـصوت هـامس ألا شيء ثم أفاجأ بأطرافي تلملم أوراقي في عجل وكأنني قد فقدت السيطرة عليهـا وأغادر دون كلمة سلام..

أخطأت أنـت يـا فاطمـة في حكـم جـائر عليـه وطلبـت مـني جفـاء لا يستحقه فما نلت أنا إلا صدرًا موجوعًا وأعينًا بالدمع محتقنة..

سارة

* * *

الفصل الخامس: ضيفة الأحلام

تدلف لمكتبي..

بوجهها الهادئ المألوف..

وجه تشعر أنك رأيته طوال حياتك في مكان ما..

أحاول تذكر اسمها..

فلا أتذكر سوى أنها غادرت محرجة آخر مرة..

أقف لتقديم اعتذاري..

ولا يفوتني ارتباكها الشديد..

هل أخطأت من جديد؟

أحاول أن أبرر شرودي لها..

لكنها تسرع خارجة كأن وحشًا يطاردها!

أركض خلفها في طرقات المشفى..

أعتصر عقلي لأتذكر اسمها..

لكن لا شيء..

وقبل أن أستوقفها..

يقاطعني نداء باسمي..

أستدير أواجه علا..

تدير ناظريها بيني وبين الفتاة الراكضة..

وتسألني: "أأعرفها؟"..

أتلعثم..

"دكتورة..."..

وأشعر بالذنب فأنا لا أتذكر اسمًا مؤكدًا طالما سمعته..

ويخرج صوتها الثائر:

"دكتورة سارة"..

"ألا تعرف اسمها؟!"

لحظات طويلة من الصمت المطبق..

ألملم فيها ذهولي..

ولا أتحرك..

إذًا فهي من سألت عني..

هي سارة التي يعرفها الجميع..

هي من أحرجتها بلا ذنب..

هي..

ويخترق شرودي الصوت الغاضب:

"أتركض خلف شخص لا تعرف اسمه؟!"..

ألتفت لعلا.. أجيبها أنني كنت أدين باعتذار..

يتوالى هجومها.. تسألني..

أأحسبها حمقاء؟!

منذ متى أكذب عليها؟!

هل أحبها؟!

أسمعها مذهولاً..

ثم أتدارك قصدها..

وأثور عليها..

أخبرها أن الأمر لا يعنيها..

وتتركني غاضبة..

أتسمر مكاني لحظات..

علا تعنيني أنا..

على الرغم من كل المشكلات..

ألتفت لألحق بها..

هنا فقط أدرك أن كل المشفى يتبعنا بنظرات فضولية..

* * *

أبحث في حياتي عن وصف لي..

فيخذلني عقلي..

تتنازع أفكاري بخاطري..

تصيبني بالدوار وتؤلمني..

وذاك الشيء الموجع في صدري..

يعتصر قلبي..

لم أعد أدري..

متى ينتهي؟

قضيت نهاري.. أسترضيها..

وهي تتجاهلني..

وأنا لا أعرف ذنبي!

لم أتذكر اسم من كنت أركض خلفها..

ولم تصدقني..

تقول إنني أخونها..

وهل هذا ما تعرفه هي عني؟!

تلعثمت بين يديها..

عندما أخبرتني بذاك الاسم..

"سارة"..

فزاد الشك في قلبها..

وأنا لم أعد أعي..

* * *

شيء ما في صدري..

يمنعني من التنفس بسلاسة..

أصبحت أنفاسي موجعة..

أشعر بها كأنها ثقل يجثم عليَّ..

لم أعد أريد تلك الأنفاس..

أنكمش على نفسي..

لا يهمني إن رآني أحد..

أراجع يومي..

ما الذي يحدث حولي؟

منذ متى انفلت زمام أفعالي مني؟

لم أعد أنا من كنت أعرفه طوال حياتي..

هي تحطم بتأنٍ كل ما أنا عليه..

وتضيف الشك لقائمة أحمالها عليَّ..

وفجأة..

أتذكر سارة..

تلك المخلوقة الرقيقة..

لماذا تظهر وتختفي في غمضة عين؟

كأنها جنية من قصص أطفال..

وما ذنبها هي فيما يحدث لي؟

لِمَ تتورط دائمًا في ردود فعلي الغريبة؟!

ما زلت مدينًا لها باعتذار وتوضيح..

أم أنني فقط أدين لعلا بالاعتذار؟!

ماذا أفعل لأسترضيها؟

وهل ترضى؟ وماذا يرضيها؟

بت لا أفهمها..

أتذكر أن جوابها لسؤالي كان صمتها..

إذًا فلا شيء يجمعنا..

لم أعد قادرًا على تحمل ذلك..

هذا يكفي..

* * *

توقظني أمي..

لأنني تأخرت كثيرًا على عملي..

تبتسم في حنان لي..

وأرد لها الابتسام..

تسألني..

هل كنت أحلم!

فلقد كنت أبتسم..

وأهز رأسي راضيًا..

وأقفز من سريري كي لا أتأخر..

* * *

أنتظر طوال اليوم أن تأتي سارة..

لقد كانت ضيفًا رقيقًا في كل أحلامي بالأمس..

لا أعرف لماذا!

تطالعني في كل حلم بوجنتين في حمرة الزهر..

تتعاقب أهدابها.. تخفي عينين بريئتين تارة.. وتحيطهما تارة..

وأنا أهمس في الحلم: سارة..

ويختلج نبض هناك في قلبي..

فأضع كفي أتأكد..

فأشعر به يضرب هناك ويُسرع..

أنظر في ساعتي من لحظة لأخرى..

لكن الساعات تمر ولا تأتي..

كان يجب أن تأتي..

لقد مر زمن من وقت اعتذاري..

ومن يومها لم تظهر أبدًا في المشفى..

ما الذي يجري؟

* * *

عزيزتي فاطمة..

مبروك يا توأم الروح المفقود.. ألف مبروك.. لا تتخيلين كم رقص قلبي طربًا بين أضلعي وأنا أقرأ كلمات خطابك التي تقطر سرورًا وفرحًا..

جرت الأيام بسرعة يا فاطمة كانفراط حبات عناقيد القبار وبت أنتظر بأكثر من انتظارك يوم ينـاديني بكلمة "خالتي سارة".. تحياتي إلى محمود وبلغيه بأطيب الأماني بالذرية الصالحة..

تسألينني عن أحوالي وما أنا بأعلم بها منك.. تكتبين الظنون فترسمين بسمة على وجهي بصدق كلمات ومشاعر لم أبُح بها وشعر بها قلبك الطاهر على الرغم من فارق الأوقات والأميال..

صار المستشفى وعيادته خصيصًا أثرًا مقدسًا أخاف أن أدنسه بذنوبي وظنوني المسيئة وكأن اعتذاره قد آلمني بأكثر مما أراحني.. وبت أنا المُطالبَة باعتذار عسير عن سوء معاملتي فأغدو وأروح أمامه وكأنه محاط بهالة من نور لا تستطيع روحي المخطئة القلوق اختراقها.. فأمقت أكثر خجلي وسلبيتي التي تدعينها دوما بأكبر عيوبي..

أجلس في غرفتي وحيدة وأتسلى بكتابة أشعار لن يقرأها غيري ويشرد عقلي في صوت نجاة الشجي فأفاجأ بأمي تدخل حاملة شايًا في فنجان من الكريستال الشفاف كلون عينيه فأطالعها بضحكاتي وأدفن دمعي بين

جفنين واهنين حتى تغادر فأُبلل الكثير من مناديلي الموضوعة في درج مكتبي حتى توشك على النفاد..

آوي إلى فراشي هربًا من ضمير مُوجع فتبادرني أحلام سعيدة يكون وجهه القاسم المشترك الوحيد بينها.. فأستيقظ من سُباتي في الظلام وعيناه العسليتان العميقتان هما كل ما يملأ مجال بصري ثم أتذكر.. فيزداد بلل وسادتي ما بين اختلاط عرق لزج بارد بدمع شوق حار..

بئس الإثم الفرقة بعد اللقاء..

أكاد أسمع صوتك المُؤنِّب وأرى نظراتك اللائمة فتزيدينني عذابًا فوق عذاب وكأنك لا تدركين طبيعتي الضعيفة وعادتي ألا أفعل شيئًا حتى ولوج الجمل في سم الخياط..

كفاني كلامًا عني وليفعل الله ما فيه الخير لي..

بخصوص ما سألتِ عنه في خطابك فقد أخبرتني أمي بأن عليك تناول أنواع مُعينة من الأطعمة للحمل و......

أختك السعيدة من أجلك

سارة

* * *

الفصل السادس: مهب العاصفة

يضرب المطر بشدة زجاج المشفى..

يشعرني أنه سيقتلعه في أي لحظة..

أقلب في صفحات كتبي الكثيرة..

قضيت يومًا مرهقًا في العمل..

وأمني نفسي الآن بالراحة في هذا الصقيع..

وتستقر عيناي على سلسلة مفاتيحي الملقاة على مكتبي بإهمال..

ألتقطها.. أفصل منها هذا القلب الصغير..

أتأمله بشجن..

وأضعه في درج المكتب تحت الأوراق المبعثرة هناك..

أعبث بقلمي..

أرسم مئات الدوائر والخطوط المتداخلة..

وأخط إمضائي هناك بكثرة..

كأني أتعلم الكتابة..

أتذكر سارة..

لماذا لم أرها لعدة أسابيع؟

لقد كنت أراها كثيرًا قبل أن أعرف اسمها..

والآن أنتظرها لأعتذر.. لكنها لا تظهر..

أطالع عقارب الساعة..

وكأن بيننا موعدًا ما..

أراقب الثواني الزاحفة..

يضيء البرق في الحجرة الصغيرة شبه المضيئة..

فأسرع للنافذة كما كنت أفعل في صغري..

لأراقب قطرات المطر..

وأسترجع طفولتي البريئة..

تمنيت أن أركض تحت المطر..

لكن مظهري وقتها لن يوحي بالثقة لمرضاي..

ألمح الخيال المتحرك في شارع المشفى المطير..

يخطو ببطء نحو المبنى..

ويلتفت مسرعا نحو بوابة المشفى الخارجية..

ويتردد قبل أن يخطو خارجها..

عائدًا أدراجه..

عكفت أراقبه لدقائق..

يسير ذهابًا بتردد وإيابًا بخطوات واسعة..

أفتح الزجاج المبتل كي تتضح الرؤية لي..

وأعرفها..

سارة..

أهرع خارجًا من مكتبي..

ماذا تفعل في هذه الأمطار الغزيرة؟

تجلدني الأمطار القوية وأنا أعدو نحوها في الطريق الخالي..

مؤكد هي مجنونة لتمشي بهذا البطء هناك..

أقف قبالتهَا أسد عليها طريقها..

وتقف هي مذهولة لا تنطق..

أسألها عما تفعل..

لكنها لا تجيب..

كأنها في صدمة لسبب ما..

تلقائيًا أخلع معطفي السميك..

وأضعه على رأسها وأكتافها..

وأجذبها من ذراعها لتحتمي بالمبنى الضخم..

* * *

تجلس في مكتبي..

صامتة كأنها لم تفتح فمها طوال حياتها..

ترتعش كأنها ورقة شجر في مهب عاصفة..

وتبكي..

نعم تبكي..

بلا صوت..

ما كنت أحسبه قطرات المطر على وجهها..

أراه بوضوح ينبع هناك أمام مآقيها..

ويضل طريقه فينحدر من كل مكان..

في خطوات كريستالية حثيثة..

تجري فتصب في فمها..

أو تفيض على غطاء رأسها الأنيق..

أقدم لها علبة المحارم الورقية..

فتخفي وجهها في بعضها..

يدخل الساعي بفنجان الشاي الساخن..

وأضع القدح الوحيد أمامها..

تتعلق عيناها بالفنجان الكريستالي للحظات..

وتبتسم..

أبتسم بدوري..

أسألها بفخر أيعجبها فنجاني الخاص..

ترفع ناظريها الباسمين لي لثانية..

وتخفضهما بسرعة وهي تتمتم بنعم..

وأخبرها مزهوًّا أنه ذوقي..

من جديد أجدني أعتذر لها..

وبشرود أقص عليها أسبابي..

تفاصيل حكايتي..

سبعة أعوام من الحب..

هي لم تطلب مني أن أحكي..

لكن صمتها كان يشجعني..

وعينيها المواسيتين تشدان من أزري..

ونظرتها الحنون تشعرني أنني قضيت زمنًا أنتظر أن أتحدث..

وأشعر أنها لا تمل شكواي..

فأكمل..

أخبرها عن ألمي.. حيرتي.. غضبي..

أحلامي المقتولة..

وحبيبتي القاتلة..

وتمردي عليها وعلى نفسي..

أحدثها عن ترددي..

وأخبرها أنني ببساطة أصبحت أرى النهاية..

هكذا أواجه الواقع..

أنزل بقدمي على أرضه الصلبة..

أضربها بعناد احتجاجًا..

فأشعر بالألم كأنها ترد لي الصاع صاعين..

أخبرها أنني بدأت أرسم ملامح مستقبلي..

بعيدًا عمن كانت حبيبتي..

* * *

يقاطعني الطرق على الباب المفتوح..

ويدخل معتز معلقًا بصره بها..

يسألها إن كانت بخير..

فتحرك شفتيها بصمت وهي تنكمش على نفسها..

أخبره أن الأمطار أغرقتها..

ويتخذ لنفسه مقعدًا قبالتها..

يثرثر كثيرًا..

فتستأذن هي بهدوء..

وتشكرني بامتنان وهي ترد معطفي..

* * *

أعود لداري..

تهز أمي رأسها برضا وتقبل جبهتي..

وألمحني في المرآة وأنا أتحرك أمامها..

فأقترب أتأمل وجهي بعجب..

وأضبط خطوط فمي المبتسمة..

فأعرف لم كانت سعادة أمي..

* * *

أستلقي مراجعًا يومي..

كم كنت غريب الأطوار؟

كيف نسيت أن أسألها عن سبب دموعها؟

* * *

عزيزتي فاطمة..

تخيلي ريشة طائر مُحلِّقة في وسط إعصارٍ قاسٍ يتقاذفها يمينًا ويسارًا ويعلو بها إلى أعلى العليين فيهوي بها فجأة من حالق دون إنذار أو تنبيه ثم تهدأ الرياح فجأة وتصفو السماء المُلبَّدة وتظهر الشمس بعد طول غربة وضياع فتهبط في هدوء وسكينة حتى تستقر على حافة بتلة زهرة حسنة الشذا في أمان وثبات..

تلك ما آل إليه حالي بعد لقياه..

شعرت وكأن دوامة بثي وحزني قد انتهت وكأنني قد ضممت جناحيَّ إليَّ وهو يحيط كتفي بمعطفه البني الثقيل الحامل بقايا عطر رجولي نفَّاذ تسلل مع أنفاس شهيقي فزلزل كياني المتصدع واقيًا إياي من المطر المنهمر ومسَّ ببنانه - عن غير قصد - جزءًا من كفي فسرت قشعريرة في جسمي من موضع لمسته تغمرني اختلطت مع ارتجافة البرد القارس فزاد انكماش جسدي الضئيل..

جلست إليه يا فاطمة وبدأ هو بالحديث كأنما لمح في عيني رغبة في الاستماع إلى صوته العذب واسترساله الذي لا ينضب فتحدث كثيرًا جدًا وعقدة لساني الأزلية تأبى أن تُحل فأكتفي بإيماءات متقطعة برأسي كل هنيهة وأخرى..

إنه يُحِبُ يا فاطمة..

ليست أنا منعًا لظنونك.. إنه يحب أخرى ويذوب عشقًا في كل تفصيلة دقيقة منها ولم أفهم محاولاته غير المبررة لإنكار ذلك وطرقه الفاشلة لإقناعي بأن ذلك الحب قد اندثر وفني..

يذوب عشقًا فيها بمقدار ما أذوب عشقًا فيه..

أشعر بلكزتك الوهمية في جانبي وأنت تنهرين ضعفي وهواني وتخبرينني بأنني أخدع نفسي إن ظننت هذا حبًا.. لكنني أعلم ما هو الحب يا

أحب الناس إلى قلبي.. أشم عبقه بين أسطُر روايات يوسف السباعي وأراه في كلمات وصفك لمحمود زوجك بل وأقرؤه في التماعة مقلتيه الجميلتين ذاتها..

الحب هو الإحساس الوحيد الذي يوصف بأفعال لا بكلمات.. بالهمس.. باللمسِ.. بالآهاتِ.. بالنظراتِ.. باللمساتِ.. بالصمتِ الرهيبِ.. كما تقول معشوقتي..

الحب هو مكان لا تشعر فيه بزمن.. ووقت لا تحدد فيه اتجاهًا.. هو نور يضيء كل ظلمات الدنيا ودهماء أفضل من ألف نبراس.. الحب هو المرادف الوحيد لكلمة هلك باحثون في سعيهم الحثيث لتفسيرها.. السعادة..

وأنا سعيدة يا فاطمة..

على الرغم من أن الريشة عادت ثانية لتتقاذفها الرياح بأعنف مما كانت فإن ذاكرتها لا تنسى شذا عطر الزهرة الجميلة..

أمدُ كفي ماسحة عبرة أراها تنسال على وجنتك حزنًا عليَّ فأبتسم إليك شاعرة برضا نفسي عجيب وقد قررت قرارًا أعرف أنك سترينه جنونيًا لا محالة.. لن أتخلى عن سعادتي ولن أفرط في حب مكنون في رحم حياة كتب لها أن تُجهض.. سأبقى بجانبه ولو كلفني ذلك عذاب عُمرٍ بأكمله سعيًا وراء رؤية ابتسامة تتشكل فوق شفتيه النضرتين..

سأعُيدُ إليه حبه..

أختك ومعجبتك الأبدية

سارة

* * *

الفصل السابع: ذنب كل امرأة

يجذبني جو المرح السائد في حجرة الأطباء..

وأقف في ركنها وحيدًا أتابع بشغف..

سارة تقف وسط طبيبات القسم..

تنشر الابتسامات حولها بسخاء..

وكلهن يشاركنها المرح..

أستغل انشغالها بمن حولها..

وأتأملها بتأنٍّ..

فتاة أنيقة..

تغطي رأسها بالطريقة العصرية المسماة "سبانيش"..

تنسدل أطراف غطاء رأسها الجميل على طول ظهرها..

وتترك رقبتها مكشوفة..

تزينها دائمًا بعقد فضي دقيق..

وتتميز ملابسها بطابع "التونيك" الطويل الفضفاض..

تجذبني الضحكة الطفولية البريئة..

فيتعلق بصري بوجهها..

عينان في لون العشب النضر..

تلتمعان بالسعادة وكأن قطرات الندى تغلفهما..

أنف شامخ..

وثغر لا يكف عن الضحك..

وكأنها سارة لا أعرفها..

تنحى التلعثم - الذي يكبلها أمامي - بعيدًا..

تنهي عملها وحوارها المازح معهن..

وتلتفت لتغادر..

لتكتشف أنني واقف هناك..

أبتسم وأنا ألمح الحرج يتشكل على وجهها..

وتزحف الحمرة تغطي وجنتيها ورقبتها..

تتمتم بشيء ما..

فأفترض أنها تلقي السلام..

أسألها عن حالها..

وتهم بالمغادرة..

فأسألها عن الدواء الجديد..

وتمضي تحدثني عنه بجدية..

وتغادر..

لا أدري ما الذي دفعني لأتبعها..

تكاد تكون تركض في طرقات المشفى..

وتتوقف بتردد عند بداية السلم..

ثم تكمل طريقها نزولاً..

لكنها تلتفت عائدة..

وتكاد تصطدم بي..

وتتوقف صامتة تعقد حاجبيها..

أسألها: هل نسيت شيئًا؟

فتجيب بنعم ولا..

وتلتفت لتغادر..

لكنها تعود لتسألني.. إن كنت أسمح لها بأن تنصحني وتتدخل في حياتي!..

وكأنها أعطتني مفتاح كنز..

أتنهد ارتياحًا..

فقد كنت أتمنى أن أحدثها عما حكيته لها في آخر لقاء..

تطلب مني ألا أقاطعها..

وتمضي تتحدث وهي تنظر لكفيها..

كأن حديثها منقوش هناك..

تخبرني أنني أهيم بـ"علا" عشقاً..

وإن ادعيت غير ذلك..

أنني أكذب على عقلي..

كذبة حمقاء لم ينخدع بها قلبي..

فأعذبه في نيران اللوعة..

وأتعذب معه..

تسألني..

أأعرف ما تريده علا مني!..

وتجيب دون أن تنتظر جوابًا..

* * *

"إنها تريد ما تريده كل امرأة..

تبغي أن تشعر أنها آمنة في مكانها في قلب حبيبها..

تنشد مكانًا لليوم.. وللغد.. وبعد ألف عام..

وتزهد مكانها وإن كان قصرًا..

لو بدا لها – ولو لوهلة – أنه مؤقت..

تنشد منزلة لا تتزعزع في قلب حبيبها..

تطمئنها أن ذاك الحب دائم..

تسمح لها بالنوم كل ليلة قريرة العين..

تحلم بغد آمن بين أسوار قلب المحب"..

* * *

كل امرأة تنشد الحب..

لكنها تفر منه وكأنه كابوس رهيب..

إن خامرها شعور بأن محبة حبيبها لها أقل من محبتها له..

تتزعزع ثقتها فيه وفي نفسها..

ويصبح الخوف ملازمًا للحب..

يصدمه بقوة في كل لحظة..

يصدعه ويصنع به آلاف الشروخ..

يضعفه بإصرار..

حتى يأتي اليوم الذي ينهار فيه..

إياك أن تدع حبيبتك تبتعد..

بدعوى التروي أو التفكير..

فمكانها في قلبك يتغير..

يصبح غريبًا عنها..

تعشش فيه خيوط عنكبوت الشك..

ويمتلئ بأشباح الفراق..

وتسكنه الوحشة والآلام..

لتفزعها كلما حاولت العودة..

تمنعها من النوم الهانئ..

تعذبها لتقودها لهاوية الرحيل..

حتى تنسحب مهزومة من أرض كانت لها يومًا..

وأصبحت ملكًا للخوف..

* * *

أنت تحبها بلا شك..

لكنك تحبها بالطريقة الخاطئة..

تُبدي لها ما تعتبره أنت الحب..

وما تعتبره هي مفاتيح الرجل للخيانة..

فتعلم كيف تعطيها الحب كما تنشده..

تمسك بها في اللحظة التي تتخيل هي فيها أنك راحل لا محالة..

لا تجعل الفراق يخطر ببالها..

فهذا الخاطر كالسرطان..

ينشر أصابعه الآثمة يدمر الحب..

اقترب كلما قررت الابتعاد..

فهذا يطمئنها..

يزرع بقلبها أشجار الأمان الوارفة..

يغرس لك ثمار الثقة..

لألف عام مقبلة..

ومهما تساقطت الأوراق في الخريف..

تبقى فروع الشجرة في السماء..

تؤتي أُكلها كل حين..

* * *

"الحب ذنب كل امرأة..

فلا تعطيها ألف سبب لتتوب عنه..

لترفع عن كاهلها عقاب العصيان..

الحب يولد طفلاً لا حول له ولا قوة..

فلا تدعه بالعراء يموت..

احمله إلى أحضانك..

تفيض عليه بحنانك..

فيتعلق بك.. كأن لا أحد آخر له سواك..

أحب طفلك كما هو..

بمرضه..

بعلاته..

بعيوبه..

لا تحاول شفاء علة..

فشفاؤها بيد الله..

وهذا هو اختبار قوة حبك..

أن تحب وليدك وإن كان مشوَّهًا..

احمه في رعايتك..

احمله دائمًا إلى واحة الثقة..

ثقتك فيه..

لتجني ثمار ثقته بك"..

* * *

مرآة آثامي فاطمة..

كانت تلك المرة الأولى التي يجعلني خطابك أنزف الدمع بحارًا وحروفه تتشوه وتهتز أمام بلورة الأعين فتزيد السعير لهيبًا.. وتحيل مرقدي إبرًا قاسية مسمومة..

لا ألومك أو أعاتبك يا أختاه.. بل أطلب منك قليلاً من الرحمة وإحساسًا بقلب يرتجف بين الأضلع طالما كنت أنت الملاذ الأخير له.. قلب عندما كتب الله عليه الحب الأول ألزمه بهوان وعذاب مقيم..

وبين خطابي الأخير إليك وتسلمي لخطابك كنت قد بدأت رحلتي العسيرة لرسم البسمة على شفاه من أنا به متيمة.. بسمة تنبسط بها أساريره وينقبض معها صدري وأنا أمنحها عن طيب خاطر لقلب آخر..

بذلت مجهودًا خرافيًّا معه وتعددت زياراتي إليه بحكم العمل على الرغم من أن نصيب العمل منها كان شيئًا يسيرًا وأكاد أغمض عينيَّ وأسد أذنيَّ عن نظرات ساخرة وهمسات ماكرة لاكت بين أفواه العاملين في

المستشفى.. حتى صديقه المقرب الذي عـرَّفني بـه لم يُفلح في إخفـاء نظراتـه التي تعني الكثير إليَّ وكأنني أرتكب جرمًا يحاسب عليه القانون..

والغريـب – الـذي أدهـشني شخـصيًا – أن ذلـك كلـه لم يـضعفني أو يقهقر خطواتي لحظة وكأنني مدفوعة بطاقة خفية سيطرت على الخاطر قبل الباطن وتجعلني أسير كمعصوبة العينين في سهل منبسط لا يحمـل أخطـارًا.. أنا أسيرة قيد اختيار نصبته حول رقبتي وبات الفرار منه مستحيلاً..

وعندما طلب مني إيهاب رقم هاتفي شعرت بأنني قـد توقفـت فجـأة كسفينة توقفت محركاتها في عرض البحر لا تدري أيان مرسـاها.. لم تـصدر منه أبدًا أي حركة تدعوني للهرب أو للحذر.. وكنـت أشـعر بخوفـه البـالغ عليَّ من نفسه قبل غـيره.. ولـما لـمح نظـرة الـتردد في عـينيَّ انهـال سـيل مـن الاعتذارات من فمه ولمحت نظرة ندم هائلة تلتمع في عينيه فاستوقفته بكفي المفرودة في وجهه طالبة منه التوقف عن الاعتذار وأُسجل رقمـه علـى هـاتفي وأخبره بأنني سأحدثه فيما بعد من رقمي..

والحقيقة أنني لم أدر لِمَ فعلت ذلك..

كان بإمكاني أن أرفض مـن الأسـاس وأخـبره بـأنني أمـانع أن أعطـي رقمي للرجال كما تعرفين عني.. وكنت أستطيع أن أقبـل في وقتهـا وأعطيـه رقمي بالمقابل..

لكنني لم أفعل هذا ولا ذاك..

ظللت طيلة اليوم أنظر في اسمه المضيء على شاشة هاتفي وأتأمل أرقام هاتفه حتى وجدت نفسي أحفظها عن ظهر قلب ويـداي مغلولتـان إلى العنـق ترفضان الاتصال به.. ولم أستطع حمايته من حمم انتظار تغرقه..

أطلت عليـكِ يـا فاطمـة.. كمـا أنـني لا أقـدر أن أسـيطر علـى رعـشة تشملني تُذكرني بارتعاشة خـروج الـروح فأستميحك عـذرًا أن أُكمـل لـك في خطاب لاحق..

طلب أخير.. لا تقسي عليَّ.. فأنت حائط مبكاي الأثير..

من تترجى منك الرحمة والشفقة

سارة

* * *

الفصل الثامن: النظرة الحانية

تهزمني كلمات "سارة"..

تحرك بداخلي ذنبًا يترعرع..

تصفعني بأفكار.. كخيانتي لـ"علا"!!

تهمس لي أنني لم أكن أستوعب..

أتصرف من منظوري..

دون أن ألتفت للوجه الآخر لعملة الحب..

أسير كالقطار في طريقي..

غير عابئ بالحواجز..

لا ألتفت للطرق البديلة المتاحة..

فأتوقف طويلاً..

أعيد تقييم الموقف..

وكل ما آلت إليه الظروف..

أسأل نفسي في صرامة:

أما زلت أحب "علا"؟

وأغمض عيني..

أحاول أن أمنع الدمعات..

لكنها سالت غصبًا عني..

وأنا أتذكر تفاصيل سنوات عشقي لها..

يتزعزع عنادي..

وتتراجع كبريائي..

وينتصر بداخلي الحنين إليها..

ويكسرني ضعف غريب..

فأترك نفسي للبكاء..

حتى أشعر بطعم الملح في فمي..

* * *

أتمالك نفسي..

وأنطلق في طريقي إلى "علا"..

أقدم اعتذاري.. تصمت طويلاً..

أسألها عما يدور بذهنها!..

فترد بألا شيء..

ثم ترسم على وجهها ابتسامة واسعة..

أسألها في هدوء..

إن كانت تحبني!..

فتقسم بنعم..

وتسألني إن كنت أشك في حبها!..

فأهز رأسي نفيًا..

تخبرني أنها كانت تفتقد وجودي بحياتها..

فأؤكد لها أنني كنت أعاني الشعور نفسه..

تسألني كيف ابتعدت عنها!..

وهل كنت سعيدًا!..

أجيب بصدق أنني طالما اشتقت إليها..

وأنني كنت حزينًا وحيدًا..

تبتسم بظفر وسعادة..

فأعقد حاجبي..

وأخبرها أنني ظننتها سترق لحالي..

ترد بمرح أنها هكذا تتأكد من حبي..

وأنني لن أبتعد عنها أبدًا..

ولن أتركها مجددًا..

وتشير لنفسها بفخر..

قائلة إن لا أحد يترك علا..

ومن يتركها فهو لا أحد..

وأبتلع ريقي..

فهكذا كان شعوري وأنا مبتعد..

أنني لا أحد على الإطلاق..

تسألني مبتسمة.. إن كنت لا أزال أحبها!..

فأجيب بصدق: نعم وألف نعم..

وتزداد ابتسامتها تيهًا..

هي تعرف يقينًا أنني سأتقبل ردود فعلها..

لأنها واثقة أنني أعشقها..

وسأظل أعشقها..

* * *

أنتظر "سارة" بفارغ الصبر..

أقص عليها كل ما جرى..

وألمح الابتسامة الراضية تتألق على ملامحها..

وأصر أن نحتفل..

أغيب لفترة ليست بالقصيرة..

وأعود حاملاً الكعك والمشروبات الغازية..

وأنشد مع الأطباء في الحجرة سعيدًا..

وهي تراقبنا وتضحك..

* * *

أسرع لـ"علا" كل يوم..

بمجرد انتهاء أعمالي..

كأنني أعوض الأيام السابقة..

وكأنني أستبق الزمن..

لأضمن قربها لوقت أطول..

فتتراقص الدنيا من حولي..

تطلب مني ألف دليل على حبي..

فأقدم كل ما تطلب طائعًا..

فمن لي سواها؟

تتدلل.. فأراضيها..

تتقرب.. فأصبح راضيًا..

أكاد أطير فرحًا..

وأنا أشعر أنني أملك الغد في قبضتي بإحكام..

يسألني كل من يراني..

عن سر سعادتي..

فأضحك من قلبي..

* * *

تغزوني هواجسي..

أحتاج لأن أتحدث بما في قلبي..

كلما هممت بالاتصال بـ"علا" لتطمئنني..
أتراجع..
أخشى أن أخسر– بشكوكي – نصرًا أحرزته..
أتذكر سارة..
فهي وحدها تسمعني بصبر.. وتنصحني بإخلاص..
كأننا صديقان منذ الطفولة..
لا أغفل النظرة الحانية في عينيها..
نظرة تقطر بشعور غريب عني..
لم أره من قبل..
ولم أستطع تفهمه..
تعلقت عيناها بعينيَّ في آخر حديث لنا..
لكنني أجزم أنها لم تكن تراني إطلاقا..
كانت تسرح في مكان ما بعيدًا عني..
وكأن روحها ترفرف في مكان آخر..
تنقل منه إليَّ كلماتها الفياضة..

* * *

أظل أنتظر زيارتها للمشفى كل يوم..
أسأل معتز عنها كثيرًا..
فيرمقني بنظرة متشككة..

ويرد بأنه سيعلمني إن رآها..

* * *

وتأتي أخيرًا..

أخبرها أنني لا أشعر بالسعادة التي كنت أتوقعها..

يدق ببالي خاطر غريب..

قلق من تكرار خطئي..

وأن أعود لعذابي..

شك وخوف من تقلبات علا..

لم أعد راضيًا..

شيء ما يبعدني عنها بإصرار..

تهز سارة رأسها في عدم رضا..

وتعقد ما بين حاجبيها..

تخبرني ألا شيء يعود كما كان فجأة..

سأحتاج وقتًا طويلاً كي أنسى..

تطمئنني..

وتعطيني شعورًا بالأمان..

تدافع عن علا باستماتة..

فتعيد لي الكثير من ثقتي فيها..

تعطيني عشرات الأفكار لأتقرب من علا أكثر..

تخفف عني أحزاني..

وتدفع شكوكي بعيدًا..

وتهبني لمحات أمل مشرقة..

* * *

عزيزتي فاطمة..

أبذُل الكثير من الجهد تلك الأيام..

كملاكم يصارع وسادة الريش الضخمة فيلحقها باليمنى ويتبعها باليسرى في رحلة دءوب تتجمع فيها قطرات العرق على الجبهة المحمومة وتنتهي بسقوطه مهزومًا مدحورًا وتتأرجح الوسادة منتصرة في الهواء دون أي ضرر ولا أذى..

كذلك كنت أنا في الأيام الخالية أحارب من أجل هدفي وأنا أعلم سوء المصير وبُغض المستقر..

تدور حياتي حول محور إيهاب وقد صارت غاية آمالي هي رؤيته مسرورًا وإعادة الحب إلى قلبه العاشق النابض.. كان ضعيفًا وشعرت مرارًا أنني قادرة على غرس راية حبي على تلال قلب مشقوق مُعلنة ملكيتي ونجاحي الأزلي.. لكنني أحسست بمرارة الاستغلال والانتفاع تتصاعد إلى حلقي.. لم ولن أكون أبدًا من يستغل ضعفًا أو حاجة لبشرٍ حتى لو كان هو المصب لنهر أحلامي..

كنت أراه يسترجع حبه بخطوات بسيطة.. وكنت أستحثه بابتسامة في عين والأخرى تخفي دمعًا يُجاهد لحفر سردابه المبتل على وجنتي فيراودني شعور متناقض لَعِين يجعل كل يوم مجموعة من الساعات الغريبة من الألم والبهجة في آنٍ واحد..

أُغلق على نفسي الأبواب.. ليتني أصل إلى راحة نفسية هي سِدرَة مُنتهاي.. فما يزيدني البُعد إلا شقاءً ورغبةً في التخلص من حياة ملأها البؤس لولا رحمة من الله..

لم أستطع إكمال الخطاب السابق إليك.. عذرًا من أجل ذلك يا فاطمة.. لكن قواي قد خارت فاستسلمت وحان الوقت لاستكمال ما قد بدأته..

قضيت ليلتي تلك أرقب عقارب الساعة الزاحفة ببطء شديد.. تأبى أن ترحم عينيَّ الراجيتين إلى أن دقت ساعة منتصف الليل فأرخيت كفي المُتعرقة عن هاتفي وكتبت بأصابع مرتعشة رسالة: "هذا رقمي.. استخدمه للضرورة"..

أقسم بالله يا فاطمة إن هذه الكلمات الأربع هي كل ما كتبته وأرسلتها إليه قبل ترددي الذي جعلني أندم ألف مرة بعد اتخاذي هذا القرار.. الحق أنه لم يحاول محادثتي قط بعدها.. حتى إنني ظننت لوهلة أنه لم يدرك من أرسل إليه الرسالة إلى أن قابلته بعدها فتلقاني بابتسامته

الجميلة التي تضيق معها عيناه الكريستاليتان وقال باقتضاب: "أشكرك على الرسالة"..

شعرت بوهج الخجل يحرق وجنتي وأنا أغمغم بصوت أكاد أُوقن أنه لم يعبر حاجز الشفاه ألا مشكلة هنالك..

كنت قد بدأت أقلل من زياراتي إليه لسببين:

أولهما: كانت علاقته بحبيبته قد بدأت في العودة لطبيعتها - اسمها علا بالمناسبة - ولم أتمنَّ أن أكون أنا السبب في إفساد علاقتهما من جديد.. خاصة أنه لم يروِ لها أي شيء عني حسبما طلبت منه..

وعلا هذه شخصية غريبة بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ.. جميلة جدًا - بوجهها البض وقدها المياس والشعر البني الذي تعقصه خلف رأسها بطريقة محببة - ولا مجال لإنكار ذلك.. لكنه ذلك الجمال الذي تتمنين أن يظل صامتًا أبد الدهر كتمثال من الذهب ليس أكثر..

ربما أكون مُتحاملة عليها أكثر من اللازم.. لكن هذا رأيي فيها وعلها تكون خيرًا مني ولا يجوز لي السخرية منها أو التهكم عليها..

ثاني تلك الأسباب هو صديق إيهاب المقرب معتز.. يظل يرمقني بنظرات ثابتة في غدوي ورواحي وكأنه يتفحص كل شبر مني.. حتى المرضات المشّاءاتٍ بنميم وضعنَ ألسنتهن في الأفواه وصار وجودي طبيعيًا هناك.. يذكرني الفرق بين إيهاب وبينه كالفرق بين حامل المسك ونافخ الكير.. ولا أعلم ماذا جمع بينهما..

قد طال هذا الخطاب كثيرًا.. لكن لم يقل شوقي للحديث إليك قليلاً.. أرجوك أن تزيدي من اتصالاتك فصوتك عابرًا آلاف الأميال يبعث فيَّ دفئًا وقوة لا حدود لهما..

عجبًا.. تلك هي المرة الأولى التي يهتز فيها هاتفي حاملاً اسمه في خانة المتصل.. أتراه شعر بأنني أتحدث عنه؟! عامة لن أجيب إلا إذا عاود الاتصال..

هاهو الهاتف يهتز بلا انقطاع وبإلحاح شديد.. حسنًا.. سأضطر للرد عساه يكون خيرًا وسأخبرك ماذا حدث في خطابي المقبل..

سارة

* * *

أشعر بالدموع تخنقني لوهلة..

لكنني أبدأ في الضحك..

ضحك هستيري غريب..

كان يجب أن أعرف..

هي ستفعلها في يوم ما..

وهي لم تؤخر هذا اليوم كثيرًا..

أتهاوى على المقعد من شدة الضحك..

وأظل أضحك طويلاً..

* * *

يدخل معتز ويجدني على هذا الحال..

يسألني بقلق: "ماذا هناك؟"

فأهز رأسي وأزداد ضحكًا..

يسألني.. إن كنت عرفت بخطبة علا!..

فأهز رأسي..

يسألني بتعجب: "ألست حزينًا؟"

لكنني أخرج من الحجرة راكضًا..

* * *

جريت كثيرًا في قارعة الطريق..

ومئات السيارات تطلق أبواقها..

وانهال السباب من السائقين..

لكنني لم أكن أهتم..

أجري بلا وجهة..

وبلا سبب..

فقط شيء ما بداخلي كنت أريد أن أهرب منه..

ولا أعرف إلى أين!

* * *

تنهار قواي..

فأقف مستندًا للسور الحديدي..

قابضًا عليه بكلتا يديَّ..

كي لا أسقط..

ألتقط أنفاسي..

وأنظر للمكان حولي..

ها أنا قد قطعت المدينة من غربها لشرقها ركضًا!!

وتسري في جسدي قشعريرة شديدة..

لأدرك أنني نسيت معطفي..

أجلس على الرصيف..

وياله من مظهر..

طبيب جالس بمعطفه وسماعته كالشحاذين..

أخرج هاتفي..

وأجدني بلا وعي.. أتصل بسارة..

أخبرها أنني أحتاجها الآن..

أصف لها مكاني..

وأغلق عيني.. ساندًا رأسي للجدار..

* * *

لم أشعر بنفسي إلا في صيدلية صغيرة..

حولي العشرات..

لكني تبينت سارة بوضوح بينهم..

تقيس لي الضغط..

وطبيب آخر يسعفني ببعض الأدوية..

لكن وعيي كان مضطربًا..

كيف وصلت هنا؟

ماذا حدث؟

تنادي سارة باسمي عدة مرات بقلق شديد..

أحاول أن أرد.. لكن صوتي يخذلني..

أشعر بالوخزة في إصبعي..

وأتدارك أن الطبيب يقيس لي نسبة السكر..

ثم يقرر في سرعة أن يعلق لي الجلوكوز..

* * *

أستعيد وعيي..

ويساندني أحد المتطوعين في الشارع..

أشكره.. وأخبره أنني أصبحت بخير..

وأستطيع السير بمفردي..

وبمجرد أن يتركني..

تخذلني قدماي..

وتسرع سارة والرجل لإسنادي..

أتعجب من تصرفها..

هي التي ترفض حتى أن تصافحني..

أنظر لجانب وجهها القلق..

كانت تنظر لخطواتها وخطواتي..

تخشى أن أسقط من جديد..

يساعدانني على ركوب سيارة الأجرة..

وتطلب من السائق أن يسرع للمشفى..

لكنني أصر على العودة للمنزل..

تحاول سارة أن تقنعني..

لكني أتشبث برأيي بعناد..

* * *

عزيزتي فاطمة..

القمر مكتمل هذه الليلة..

تذكرين انتظارك لتمام البدر كل شهر لتُبادريني بأرق كلمة غزل أو مديح سمعتها في حياتي "القمر في تمامه كجمال ضياء وجهك يا سارة".. لست أدري كيف تفتق ذهنك عن تلك الجملة الرائعة التي لم أقرأ أجمل منها في كل كتب الهوى وأساطير الغرام.. حقيقة لا مجازًا يا فاطمة.. لو كنت رجلاً لتزوجتك ☺..

بالطبع أُدرك مقدار غضبك وسخطك عليَّ - لذلك بدأت رسالتي بتلك البداية عساك تغفرين لي - وجَلي ذلك في مكالمتك الغاضبة لي بالأمس التي كلفتك الكثير بالتأكيد.. أعلم أنني قد طال غيابي لقرابة شهر كامل.. لكنني كنت فيما يشبه الدوامة لا أتمكن من الخروج منها حتى تبتلعني أخرى..

دعك من الحديث العام والكلام البرَّاق ولندخل في صُلب التفاصيل وأعدك بخطاب سميك مليء بالأحداث..

كنت قد تلقيت اتصالاً مفزعًا من إيهاب يخبرني فيه بحاجته إليَّ على وجه السرعة وتلفظ بالعنوان بأنفاس لاهثة ووجدتني أرتدي ثيابي على عجل وأغادر المنزل تحت نظرات أمي المتشككة ونظراتها ذات المغزى الناظرة نحو ساعة الحائط التي تجاوزت الثامنة بقليل..

لم أدرِ كيف استقللت سيارة الأجرة وكيف وصلت إلى هناك وكأن جسدي قد ترك عقلاً متحفظًا في المنزل وسار حرًّا طليقًا يفعل ما يشاء ويرفض ما يريد.. ولم تكد عيناي تقعان على جسده الجاثم بلا حراك حتى قطعت

الأمتار الفاصلة بقفزة واحدة وأنظر إلى حدقتيه ثم أتنفس الصعداء في ارتياح وأنا أضع كفي على صدره الذي يعلو ويهبط ببطء ولكن بانتظام ولا أظن أنني كنت سأجرؤ أن تمس يدي أي جزء منه إلا في ذلك الموقف الغريب الذي جعلني أصرخ بقوة في أحد الشباب الواقف بقربي كي يساعدني لنذهب به إلى أقرب صيدلية.. لا أستطيع أن أصف إحساسي وقتها.. كان خليطًا من الجزع والخوف عليه والسعادة بقربه والدهشة بأنه اتصل بي أنا عند حاجته ولم يتصل بعلا حبيبته التي لم أكن أعلم وقتها أنها قد تركته وخُطبت لغيره..

كانت لانفراجة جفنيه عن عينين ذابلتين تأثير استعادة الروح بالنسبة لي.. فابتلت المآقي وتبسمت الشفاه في الوقت ذاته وسألته بصوت خفيض وأنا أتحاشى خراطيم المحاليل المتصلة بأوردته: أأنت بخير؟

أومأ برأسه إيجابًا دون حديث.. ثم تمتمت شفتاه بحروف قرأتها: أشكرك.

ازداد نزيف دمعي وأنا أقول: لا عليك.. الأهم أنك بحال أفضل.

ثم تمالكت نفسي وأنا أبتعد عنه وأنظر نحو ساعة يدي المنذرة بويل قريب: لقد تأخرت حقيقة.. الطبيب طمأنني وأخبرني أنك ستكون بخير.. ينبغي أن يأتي أحد لاصطحابك للمنزل.. سأهاتفك في الغد للاطمئنان عليك.

غمغم بكلمته الوحيدة: أشكرك.

وعدت إلى المنزل مُبررة لأمي ارتجافي الشديد بالبرودة القارسة ولم تَفُت عيناي الكاذبتان عليها.. إلا أن الشفقة نحوي قد تملكتها فلم تزد

أوجاعي بأسئلتها الملحة وتركتني آوي إلى فراشي لأغرق بسرعة في نوم عميق خالٍ من الأحلام وكأنني قد بقيت مستيقظة لسنين..

ولم أخلف وعدي..

اتصلت به كثيرًا في اليوم التالي والذي يليه ورنين الهاتف المستفز يدوي في أذني بلا مجيب أو تطالعني سيدة الهاتف المستفزة الشهيرة بجملة أن الهاتف ربما يكون مغلقًا فتورف شجرة القلق في قلبي أكثر ووخزات سيوف الندم على تركي إياه في تلك الليلة تدمي صدري كسيوف الساموراي اليابانية الباترة..

كان الإعياء قد استبد بي وفكرت في الكتابة إليكِ أسأل المشورة من ناصحتي الأمينة.. لكنني لم أكن بقادرة على تحمل ساعات أخرى.. فما بالك بأيام وليالٍ على أسرَّة الشوك والشوق؟ فلم يكن في وسعي إلا التوجه إلى المستشفى الذي شهد كل البداية وكل العذاب..

ذهبت لمُقابلة علا فهي أدرى بأحواله من الجميع ! !

كنت – كما أخبرتك – جاهلة بأنها قد تركته وبدا لي ذلك وقتها هو الحل الوحيد أمامي ونحيت مخاوف عقلي وهواجس العواقب جانبًا كمن ينحي آثامه وذنوبه بالنسيان وكلاهما باقٍ لا يفنى.. ومهما تخيلت يا فاطمة فإدراك إحباطي وخيبة أملي عندما وجدتها في عطلة يفوق تخيلك بمراحل فزادني الأسى وهنًا حتى وجدت صوتًا يستوقفني: سارة.

استدرت إليه وأكاد أجزم أنه قد رأى علامات الضيق تُشقق وجهي:

مرحبًا يا دكتور معتز.

كان قد اعتاد أن ينـاديني بـاسمي علـى الـرغم مـن أنـني لم أحادثـه باسمه قط مُجردًا بلا ألقاب.. فارتبك وهو يسألني عن أحـوالي.. وقتهـا فقـط أفقت علـى أن الله لم يُـرِد أن يرُدَّنـي خائبـة الرجـاء خاليـة الوفـاض كـسيرة الفؤاد.. فوجدتني أهتف متجاهلة سؤاله اللطيف: كيف حال إيهاب؟

فاق إحراجه بالسؤال فتنحنح واحمر وجهه ثـم نكـس وجهـه أرضًـا وقال دون أن ينظر إليَّ: هو أفضل الآن.. لكنه يرفض الحديث لأي أحد حتى إليَّ.

- هو لا يجيب على هاتفه.. أليس كذلك؟

- بلى.. أنا أحادث والدته في المنزل فتبلغني مستجداته.

شعرت كأن أخطائي قد تجاوزت كل الحـدود وأنـا أسـأله: أيمكـنني الحصول على رقم منزله؟

أملاني إياه فدوَّنته ثم أردف: حاولي ألا تثيري أمر خطبة عـلا أمـام والدته فهي تلعنها عشيًّا وإبكارًا.

أخفيت علامات الدهشة في أصـداف أعمـاق روحـي واسـتوعب عقلـي الأمر بسرعة وإن فرَّت ابتسامة سعادة إلى وجهي أعزيتها لخدمتـه الجليلـة وأنا أشكره وأغـادر دون وداع.. كُنـتُ وقحـة الكلمـات والأفعـال إلا أنـني لم أسـتطع الـتحكم بأفعـالي أكثـر مـن ذلـك وخـشيت أن تفـضحني تـصرفاتي الخرقاء..

لن أُطيل عليك.. فقد كررتُ اتصالي به كثيرًا ورفض هو كثيرًا أيضًا أن يجيبني ولم أنل منه إلا صوته يأتي من بعيد يخبر فيه والدته بأن تخبرني أنه بخير ولم أوقف سعيي الدءوب حتى وجدت صوته يجيبني..

كدت أهتف وقتها بأنه أوحشني.. كدت أسأله بعتاب ألم يشتَق إليّ..

لكنني لم أتحدث.. فقط ارتفع صوت نحيبي فتحدث هو بلهجة رجاء أن أتوقف.. وطمأنني حتى انحلت عقدة لساني فطفقت أتحدث بلا انقطاع ولم أجد سوى الآيات القرآنية أتلوها عليه وتقبل كلماتي بقبول حسن وأحسست بارتياح يتسلل إلى صوته..

لم تتوقف اتصالاتي بعدها.. وأخبرني أنه لا يجيب على أحد غيري.. فأثلجت الكلمة صدري الملتهب ثم أتبعها بطلبه أن يقابلني فعاودني خوفي الأزلي وسلبيتي الطاعنة في القدم فرفضت بإلحاح.. إلا أنه أصر وترجاني بلهجة لم أجد أمامها سوى الموافقة..

وعلى الرغم من أنني قد وافقت بالفعل فإنني وفي الموعد الذي حدده لم أجد في نفسي القدرة على القيام من فراشي وكأن المرض قد استبد بي وجلست أتابع عقارب الساعة تنهب الوقت نهبًا وأنا أتأخر عن موعدي دون حتى أن أجد في نفسي القدرة على الاعتذار.. وفجأة دوى رنين الهاتف فارتجفت في عنف خائفة أن أنظر إلى شاشته وتناولته بأصابع مرتعشة لأجيبه بأنني سآتي.. لكنني سأتأخر قليلاً..

والحقيقة أنني قد تأخرت كثيرًا أملا أن يمل الانتظار فيرحل وكان هذا أحد أسباب الرجفة التي احتوتني وأنا أشاهده جالسًا في انتظاري على الرغم من انقضاء كل ذلك الزمن.. هرع نحوي عندما رآني ورأيت ذراعًا تمتد رغبة في مساندتي فأجفلت وابتعدت وهو يعيدها إلى جواره ويسير بجانبي.. جلسنا طويلاً وتحدثنا حديثًا مسهبًا.. للدقة كان هو يتحدث وأنا أستمع.. يتحدث عن أحلامه وطموحاته وأنا أنصت باهتمام.. وشعرت على الرغم من ذلك أنه قد قال الكثير وأخفى أكثر.. فانصرفت واعدة إياه أنه سيجدني بجواره متى احتاج للدعم..

لم أعتد النكوث بوعدي يا فاطمة وها أنا أهديك خطابًا طويلاً كما وعدت.. في انتظار ردك..

أختك ومعجبتك الأبدية

سارة

* * *

الفصل العاشر: زهرة بين الثلوج

أتمنى من كل قلبي أن يتوقف هذا الشيء البغيض الذي لا يكل..

المسمى العقل..

يعمل طوال الوقت بأقصى طاقة..

أنتظر أن تحترق مولداته – إن كانت له.

أحاول أن أخرسه بالنوم..

فيفاجئني بسيل الكوابيس المرعبة..

أستسلم..

وأبقى مستيقظًا..

أحاول أن أجد منه نفعًا..

ولكن لا شيء سوى..

ذكريات..

صور..

كلمات..

* * *

أعتزل كل ألوان الحياة..

الطعام.. العمل.. والناس..

فقط أمي..

ما من أحد سواها يقتحم خلوتي..

لا أفعل شيئًا إطلاقًا..

حتى النوم تعففت عنه..

تحولت لشبح رجل..

تحاول أمي بشتى الطرق..

أن تنقذ وحيدها من الدفن حيًّا..

لكنني أتشبث بالموت..

* * *

يبدأ هاتفي في الرنين..

لكنني لا ألتفت له على الإطلاق..

لا يتوقف لفترات طويلة..

لكنني لا أشغل بالي بالنظر إليه..

ويشعرني أنه محتل يقتحم خلوتي..

فأغلقه..

فتحرص أمي على تشغيله ثانية..

كأنها تثبت لي أنني مهم عند آخرين كُثر..

يزورني اسم سارة مع كل رنين..

سارة الشاهدة الوحيدة على عذابي..

فأدفن رأسي بعيدًا عنها..

* * *

يزورني معتز..

يُلح في لقائي..

لكنني أرفض أن أفتح باب غرفتي له..

يتحدث من خلف الباب الموصد..

يخبرني أن علا لا تستحق ذلك..

لو كانت شخصًا أفضل.. فقد يتقبل عزلتي..

يخبرني أنه صديقي منذ الطفولة..

ولم يرني يومًا ضعيفًا..

ولا يجب أبدًا أن أصبح ضعيفًا الآن..

يخبرني أنني يجب أن أعاود الظهور..

وأن أثبت لها أنني سأعيش بعدها..

ألا أدعها تفتخر بنصرها الملتوي..

يطرق الباب من جديد..

ينتظر مني ردًا..

لكني أدفن وجهي في كفيّ..

وأصم أذنيّ عن حديثه..

* * *

لم أعد أعرف الليل من النهار..

كل الأشياء تتساوى..

وحدها مرارة الخيانة ألوكها في روحي..

تكويني ببطء..

أشعر بالوهن..

أدرك أن المرض يتملكني..

يزحف على شبابي..

يتغذى عليَّ..

يترك بقايا ممزقة لا تُسمن ولا تُغني من جوع..

* * *

تخبرني أمي أن "دكتورة سارة" اتصلت عدة مرات..

وترغب بشدة أن تحدثني..

أصطنع الصمم..

سارة دون سواها رأتني ضعيفاً..

شعرت بالعجز أمامها..

أنا من يجب أن ينقذها ويراعيها..

وليس هي..

وحدها تعرف شكل هواني..

أنا من عشت عمري مرفوع الرأس..

مدافعًا عن الضعفاء..

أصبحت كمن ينقض غزله أنكاثًا..

* * *

تُلح أمي كي أجيب "دكتورة سارة"..

تخبرني أنها اتصلت عشرات المرات..

تسأل عن حالي..

وتريد أن تطمئن عليَّ..

أُذعن أخيرًا..

فلقد مرت أسابيع طويلة..

تسألني عن حالي..

فأُطلق ضحكة ساخرة قصيرة مليئة بالمرارة..

ويتهدج صوتها..

تحلفني بالله أن أتماسك..

وأنا لا أجيبها..

فأنا قد زهدت الحديث..

يصلني صوت بكائها..

تسألني ألف سؤال..

أسمعها جيدًا..

لكني أغمض عيني..

يقطر صوتها ألمًا..

وهي توصيني..

أن أذكر الله دائمًا..

أن أتشبث بالإيمان..

أن أؤمن بالقضاء..

وأن أتيقن أن أمر المؤمن كله خير..

تطلب مني أن أتوضأ وأصلي..

وتطلب مني أن أقرأ في كتاب الله..

قائلة:

{أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}..

وتنهي المحادثة..

* * *

تدق كلماتها في أذني كألف ناقوس..

تتعلق عيناي بالمصحف على مكتبي..

وكأنني وجدت قشة الخلاص..

وأتحرك من مكاني لأول مرة منذ أيام..

أتوضأ وأصلي..

وأبكي كثيرًا..

وأدهشني أنني ما كنت أبكي أحدًا سواي..

أبكي سنوات أضعتها بعيدًا عن هذا الإيمان..

أسلم..

وأمسك المصحف..

وتطالعني الآية الكريمة..

{وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شيئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شيئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}..

كم مرة قرأتها من قبل!

لكنها كانت تمر عليَّ..

أما اليوم فأتوقف..

أتفكر..

وأتأكد أنني كنت أحب ما هو شر لي..

وأسجد شكرًا للخالق..

* * *

تمر الأيام..

هكذا يطمئن قلبي..

بين أنواع العبادات..

لا أُفارقها..

وتركت العمل بغير رجعة..

أستعذب الوحدة والسكون..

وتولد روحي في مصلاي..

تهدأ وتسكن بعد طول الرحيل..

* * *

تعاود سارة الاتصال بأمي للاطمئنان على حالي..

هذه المرة.. ألتقط سماعة الهاتف..

وأطلب من سارة أن أراها لأمر مهم..

تتلعثم..

وترفض..

لكنني أترجاها..

أُطمئنها..

وأخبرها أنني اعتزمت أن أُغيِّر الكثير..

وأريد رأيها في خططي..

* * *

وصلت إلى كافيتريا المشفى في موعدي بالضبط..

جُلت بنظري في المكان أبحث عنها..

لكنها لم تصل بعدُ..

أجلس في انتظارها..

أرمق قدح الشاي أمامي بتمهل..

وأبتسم وأنا أتذكر..

كيف تلتمع عيناها كطفلة في ليلة العيد..

عندما تنظر لقدحي الكريستالي..

وفكرت في الصعود لمكتبي كي أحضره لها..

لكنني أعدل عن ذلك..

خشيةً أن أتأخر عليها..

ساعة ونصف الساعة مرت..

وكأن العقارب عربة ثقيلة..

يجرها حيوان ضعيف..

ينوء بحمله..

ويناضل..

ويزحزح العقارب من مكانها كل حين..

ملليمترات قليلة..

أشعر بها كأنها تنزلق في منحدر الخوف..

فتهوي بسرعة في الاتجاه المعاكس..

لأكتشف لاحقًا أنني أحلم أن الوقت يمر..

فهو يقف مرعوبًا في "مزلقان" القطار..

يخشى أن يعبره..

كي لا يتمزق أشلاء..

ويتركني أنا كالعالق في المزلقان المغلق..

أنتظر بصبر أن ينفتح كي أتحرر..

أنتبه بكل وعيي لكل مرة ينفتح فيها باب المقهى..

أزفر في حسرة عندما لا أجدها هناك..

فالقطار لا يصل.. وأظل أنا عالقًا..

يراودني شعور بأنها لن تأتي..

أتصل بها عدة مرات..

تجيبني أخيرًا بعد عدة محاولات خاسرة..

تخبرني بصوت واهن أنها ستتأخر..

تصل أخيرًا..

وأشعر كأن الشمس تشرق من بين الغيوم..

ربيع ينبثق من الخريف..

زهرة تتألق بين الثلوج..

قطرات مطر تروي ظمئي في صحراء الحب..

أهز رأسي.. أبعد خواطري..

وهي تتجه نحوي بخطوات وئيدة..

لقد ازدادت نحافة بشكل ملحوظ..

وأصبح وجهها شاحبًا بشدة كأنها في قمة المرض..

أشعر وكأن ساقيها تكادان تتهاويان تحت جسدها الضئيل..

أقف وأسرع نحوها..

أكاد أساندها..

لكنني أمتنع خشية أن تعدو هاربة..

أسير بقربها تحسبًا لسقوطها..

وأنا أسألها بلهفة عن أحوالها في الشهر السابق..

أعتذر عن عدم سؤالي عن أحوالها..

وأبدي أسفي الشديد أنني أصررت على خروجها وهي بهذا الحال..

ترسم ابتسامة خجل خلابة..

وهي تطالبني بأن أكف عن الاعتذار..

وتخبرني أنها مرهقة فقط..

لأسباب ستقصها عليَّ لاحقًا..

مؤكدة أنها ليست مريضة..

أطمئن لسماع كلماتها..

وأسترسل في الحديث عن خططي..

أخبرها أنني عائد للعمل..

وسأبدأ في الاستذكار لامتحاناتي التي شارفت..

وأعود لممارسة كل أعمالي وأنشطتي..

وأتطوع في المزيد..

أخبرها أنني أرى الحياة تخطو إلى الأفضل..

وأني سأجدّ لألحق بركبها..

وأني...

أتوقف عن الكلام بغتة..

بلا وعي كدت أخبرها أنني أريدها بجواري في كل مشاريعي المقبلة..

تسألني.. عما كدت أقوله!..

فلا أعرف كيف أجيب..

أدرك الآن فقط أنني أريدها بجواري إلى الأبد..

تخفف عني..

تدعمني..

ترعاني..

تسأل عني..

وتخاف عليَّ..

وأكتشف لأول مرة أنني أحبها..

نعم أحببت كل تفصيل صغير فيها..

لكنني أُحكِّم عقلي قبل قلبي الآن..

إن أنا أخبرتها بهذا الآن..

ستسيء تقديري لحبها..

وقد أخسرها..

فألتزم الصمت عما بداخلي..

أخبرها أن هذه المشاريع تكفي لهذه الفترة..

وتأجيل البقية لحين..

وتبتسم هي في براءة طفولية..

تخبرني أنها سعيدة لسماعي أتحدث بهذا التصميم..

وتُؤكِّد أنها ستدعمني متى احتجت دعمًا..

* * *

عزيزتي فاطمة..

حبيبتي فاطمة..

يا كل من أملك ولا أرضى عن ذاك بديلاً..

توليت فرارًا من كلمات رسالتك المقلقة ومُلئتُ منها رعبًا.. أحقًا أنت مريضة وزادك الحمل وهنًا وأعيا جسدك النحيل الرقيق؟ كيف تخفين عني خبرًا كهذا وتنشغلين بمشاكلي وهموم حياتي؟ أعلم أن الشكوى ليست من شيمك وخصالك الأصيلة.. لكن ما كان لينبغي لك أن تدفني سرك في الرمال وتخبئيه عني أنا..

أستحلفك بالله يا فاطمة أن تطمئنيني عن أحوالك حالما استطعت.. وإلا أقسم بالله أن أقطع آلاف الكيلومترات الفاصلة بيني وبينك لا أعلم كيف ولا بأي وسيلة..

أكتب إليك الآن وأنا ما زلت مرتدية ملابسي الأنيقة فطالعت خطابك الذي وصلني متأخرًا ثم شرعت أكتب إليك أحداث ليلتي العامرة..

تتالي الأحداث كان سريعًا على الرغم من الأيام القليلة الفاصلة بين خطاباتي.. فجاء تكليف رئيسي لي بالتجهيز لمؤتمر طبي تحت رعاية شركتنا بإحدى القاعات الفخمة في فندق من ذوي الخمسة نجوم وانغمست تماما في عملي لا يقطعه إلا مُهاتفات إيهاب بين كل حين وآخر والتي لا

تتجاوز أطولها الدقيقتين.. وعلى الرغم من إيجازها فإنها كانت كقطرات الماء تبلل شفاه مسافر البيداء..

كان خجلي القديم ما زال مسيطرًا عليَّ بأقوى مما كان.. وكأنني أقترب منه خطوة وأبتعد عنه خطوات.. لا أستطيع أن ألومه كثيرًا في ذلك الأمر.. فالأمر أولاً وأخيرًا يعود إليَّ ولا أنكر أنني تجاهلت مرة اتصاله دون إجابة كنوع من تعذيب الذات ليس أكثر.. النتيجة أنني أقسمت ألا أفعلها ثانية أبدًا فلم أعد أتحمل العطش بحق..

ربما تتساءلين بينك وبين نفسك لماذا أفعل ذلك.. هذا سؤال سيظل مُعلَّقًا في الفراغ دون إجابة.. كان خوفي قاسيًا ومُسيطرًا في الوقت ذاته.. الخوف أن أنجرف إلى هاوية فأسقط في المجهول وأن أبتعد عنها فأخسر مُبرري الوحيد للبقاء.. هذه بعض من ألعاب النفس البشرية الموجعة التي تنتهي دومًا بالانتحار أو بعقدة نفسية.. ولا أظن أن كليهما يحمل القدر اليسير من المكسب..

دعينا من فلسفتي غير المفهومة لنفسي وتأملي للأمور.. فأنت أقدر مني على تشريح أعضائي ومعرفة مواطن العلل..

بالطبع كانت هناك إحدى تلك الشركات بالاسم ذي الثلاثة أحرف إنجليزية مسئولة عن تنظيم المؤتمر والدعوات وخلافه.. وكنت أنا فقط مسئولة عن الجزء الدعائي لعقاقيرنا.. هذا حديث مُسهب وممل لا يهمك في شيء..

بالطبع كما تتوقعين كان اسم إيهاب واحدًا من الأسماء المدعوة للمؤتمر الفخم والمأدبة العامرة المسماة مجازًا بالغداء.. وقد لعبت الصدفة دورًا كبيرًا أن ألمح اسمه في قوائم الأطباء الليلة السابقة للمؤتمر ولكِ أن تتخيلي ارتجافي وأنا أنظر نحو اسمه في القائمة - سعيدة بطبيعة الحال - ثم أفاجأ باهتزازة هاتفي حاملة اسمه فألتفت حولي بحركة لا إرادية أبحث عنه ثم أجيبه فيحادثني بتلقائية شديدة ويخبرني بأنه مدعو لحضور مؤتمر في قاعة (.......) في اليوم التالي..

- هذا شيء جيد.. ستذهب.. أليس كذلك؟

- بلى سأفعل بالتأكيد.. معتز سيمر عليَّ صباحًا كي أقله بسيارتي.

- حسنًا.. اقض يومًا ممتعًا.

ألمح البسمة ترتسم على وجهك الشاحب الجميل.. أجل لم أخبره.. إن كان القدر وضعه في طريقي على سبيل المفاجأة.. أترضين أن أفسدها بصراحتي.. خاصة أنني لم أره منذ مدة تتجاوز الأسبوعين؟

لكِ أن تتخيلي شقيقتك الكسول تستيقظ من سُباتها قبل رنين المنبه.. تتناول إفطارًا سريعًا.. تأخذ حمامًا ساخنًا منعشًا.. تجفف شعرها الثائر.. تقف ما يقارب نصف الساعة أمام الدولاب لتختار شيئًا لترتديه.. يستقر اختيارها على بدلتها سماوية اللون التي ابتاعتها قُبيل حفلة التخرج.. تضع بعضًا من أدوات الماكياج على وجهها فتُحدد عينيها بكُحل داكن وتتولى الماسكراه مهمة الأهداب.. تقضي الوقت ذاته تقريبًا تُعدِّل من وضع طرحتها

فوق مفرق الرأس بعناية تفوق الوصف.. تنثر قليلاً من العطر الغالي عليها.. تنظر إلى نفسها في المرآة ثم تمط شفتها السفلى في عدم رضا..

بل والأدهى من ذلك كله.. تصل في الموعد على غير عادتها..

وفي تمام العاشرة كنت واقفة بمحاذاة سيلفيا زميلتي على باب القاعة لاستقبال المدعوين بعد إتمامهم إجراءات تسجيل الحضور..

أنت مستعدة للمفاجأة المقبلة؟ لا أظنك كذلك..

أُباغَت بـ"علا" تدخل إلى القاعة منتصبة الظهر وابتسامتها الواثقة تضيف إلى جمالها الشيء الكثير.. كيف لم يخطر ببالي أنها ستكون هنا وكلاهما طبيب في الطب الباطني وإن ضلت أهواؤهما فتخصص هو في الكلى واختارت هي أمراض القلب؟

أتلفت حولي باحثة بمُقلتيَّ عن إيهاب وأتنهد في ارتياح مؤقت لتأخره مع امتداد يد زميلتي لمصافحتها وانشغالي بحديث مُفتعل مع رئيسي فتنزع علا ذراعها المتأبطة ذراع الكهل الوسيم أشيب الفَوْدَين وتمد يدها لتصافحها ثم يتبعها دخولاً إلى القاعة فلا تغيب عن عيني التفاتة سريعة نحو البطاقة المعلقة حول رقبته لتتدلى على صدره - شأن كل الحضور - حاملة بحروف إنجليزية أنيقة كلمة دكتور "حازم شيئًا ما"..

تفحصتها من الخلف..

كانت آية في الجمال.. والحق يقال.. ذلك الجمال الآخذ بالألباب المُعلِّق للأبصار الشاهق للأنفاس الكاسر لقلوب الفتيات وكل تلك الصفات التي

تمتلئ بها أبيات المُعلقات من الغزل العفيف ونقيضه.. أما هو فكّان رياضي الجسد تنضح ملامحه برجولة لافتة لا ريبة فيها ولمسة من تكبر ورقي ظهر في ساعته الفاخرة كبيرة الحجم ودبلته الفضية الرائعة التي تنافس بريقها مع بريق ذهب خاتمها الأبيض في يمناها.. فكان هو الفائز الأعظم..

– سارة.. أنت هنا؟!

أفقت من تأملاتي على صوته يناديني واستدرت إليه ولم أستطع منع وجهي أن يلتهب بلفح الخجل ففضحني بتورده وأنا أجيب:

– أكانت مفاجأة لك؟

أذهلني معتز الواقف خلفه برده: ويالها من مفاجأة مدهشة.

مرة أخرى خانني وجهي وهو يتقلص ناظرة لمعتز قائلة في جفاء: مرحبًا يا دكتور معتز.

حياني بهزة رأس واستعدت ابتسامتي ناظرة نحو إيهاب وقدتهما بنفسي إلى إحدى الموائد المنعزلة نسبيًّا عن علا.. متحدثة بكلمات قليلة وأحبس ابتسامتي مع كلمات إيهاب الرقيقة عن اندهاشه المفرح من وجودي هنا..

تمنيت أن أتحدث معه منفردة.. إلا أن معتز كان مرابطًا له طوال الوقت.. وعلى الرغم من نحوله الشديد الذي أفزعني وذقنه النامية قليلاً على غير عادته فإنه كان وسيمًا ولم ينقص ذلك من جمال كريستاليتيه شيئًا..

خاصة مع نظرة الإعجاب التي لا أظن أنها قد خفيت على أحد.. مما جعلني أراقب الأرض بين قدميه طوال الوقت متعمدة عدم النظر إليه..

وعندما استأذنت سيلفيا ووقفت وحيدة في مكان مستتر كنت أعلم أن حدسي سيصيب.. وكان لانقباض ملامح وجهه بعد الانبساط حينما لمحها تأثير قابض عاصر على قلبي.. وظللت أراقب حدقتيه الزائغتين تدوران في محجريهما ثم تستقران عليها ظانًا ألا أحد يراه.. في حين لم تعره هي انتباهًا يُذكر.. على الرغم من علمي أنها قد رأته.. حتى في الأوقات القليلة بين كلمات أساتذة الجامعات المصرية والأجنبية كانت تقضيها في مرح مصطنع مع خطيبها الذي كان يعتصر كفها البض اعتصارًا بين كفيه وكأنه ينهل من معين لا ينضب..

وعندما حان وقت الغداء أجفلت حينما طرق بأصابعه طرقًا خفيفًا على مؤخرة كتفي فالتفتُّ إليه ففاجأني بقوله:

أين اختبأت طوال اليوم؟ ظللت أبحث عنك كثيرًا.

هززت رأسي محاولة الابتسام احترامًا لكلماته الكاذبة وتعللت بمشاغلي فبادرني: هل تتكرمين عليـ(نا) وتشرفين مائدتـ(نا) في الغداء؟

فتحت فمي للرفض.. لكن مرأى وجهه الذي زاد شحوبًا على ما كان عليه في الصباح جعلني أوافق على الرغم من نظرات سيلفيا المندهشة لي.

وعلى الرغم من ذلك كله رفض اليوم، أن ينتهي إلا بإلقائه قنبلته الأخيرة المفجعة..

كان قد استقر بنا المقام على مائدته ولم تفُتني نظرات عـلا المـستنكرة لي فدفنت وجهي في طبقي وتحملت معها تعليقات معتز المستفزة المـستظرفة وإيهاب يبتسم له مجـاملاً ثـم رن جـرس هاتفـه الـذي نظـر إليـه ثـم قـال: غريبة.

استحييت أن أسأله.. إلا أن معتز فعلها: ما بك؟

- لا شيء.. هذه مكالمة من إحدى جيراننا.. وهـي لم تعتـد الاتـصال بي.

- أجب.. لعله خير.

تحطمت أمواج بسماته على صخور الشفاه وهو يجيب هاتفه..

ثم أنهى المكالمة دون أن يتحدث البتة ونظر إليَّ بعينين احتجبتا مـن كثرة العبرات قائلاً بصوت خرج عاليًا رغمًا عنه: أمي تحتضر يا سارة.

ثم هرول خروجًا..

وها أنا أكتب إليك وقائع هذا اليوم الغريب.. أنا لا أنتظر منـك رأيًـا هذه المرة.. أتمنى فقط أن أطمئن عليك لا أكثر..

أختك ومعجبتك الأبدية

سارة

الفصل الحادي عشر: تائب عن الحب

أقف في جنازتها..

في صمت..

أتقبل التعازي..

وكأنني أصمّ..

أصبحت ذاهلاً عنهم..

لا أعرف ما يقولون..

يُصِرُّ البعض على تنبيهي لحديثهم..

فلا ينالون أكثر من التفاتة عيني..

أغمض عينيَّ..

وأنسل بروحي عمن حولي..

أشعر وكأنني بين أحضانها..

أتذكرني أبكي ولا أجد سواها جواري..

أنام هانئًا وهي تربت على رأسي وظهري..

أشعر بالدفعة القوية..

فأفيق من شرودي..

لقد بدأت الجنازة تتحرك..

يحدثني معتز:

"إن كنت تريد أن تبكي.. فافعلها.. لا غضاضة في ذلك"..

أمد كفي أتحسس عيني..

جافة كالصحراء.. تماما كروحي..

أسير معهم كالمُغيب..

أقف أمام القبر..

أُنزلها بنفسي..

وتنفض الجنازة..

يحاول معتز حثي على الذهاب..

أتحدث لأول مرة..

أخبره أنني أبغي أن أكون وحيدًا..

وأرتمي على حافة لحدها أبكيها..

أبكي كطفل أضاع أهله جميعًا..

كانت كل ما تبقى لي..

يخنقني النشيج..

وأتمنى لو أنني سبقتها إلى هناك..

أحاول أن أجبر نفسي على النوم..

كي يوقظني أحدهم...

وأجد أنني كنت أحلم..

يحاول معتز أن يقنعني بالعودة للمنزل..

أو لصوان العزاء..

لكنني أتشبث بحافة القبر..

رافضًا الذهاب..

ويبدأ المطر الغزير يغرقنا..

وآهاتي تتعالى..

والسماء تجيبني بالرعد..

تشاركني البكاء عليها..

ساعات مرت..

وأنا على ذلك الحال..

فقط قواي بدأت تخور..

* * *

كم من أيام قضيت وأنا على هذا الحال.. أمضي كالآلة أصنع آلاف الأشياء في اليوم لا أترك لنفسي لحظة واحدة لراحة أو سكون.. لم أعد أجلس مع نفسي كثيرا.. كي لا أفكر في شيء.. فبمجرد أن أكون وحيدًا أغرق في حزني على أمي الراحلة.. لكنها تمر بخيالي.. وأنا جالس أستذكر، فيتوقف القلم في يدي.. ويسرح فيها خيالي..

مستعيدًا ملايين الذكريات..

أبتسم تارة..

وأبكي أخرى..

أتمنى لو قبلت جبينها الطاهر الآن..

تخنقني غُصة في حلقي..

وأترك ما بيدي.. متجهًا لحجرتها..

أقلب في أشيائها..

كل شيء صغير صنعته بيديها..

أشغالها اليدوية..

مفارشها..

زهرياتها..

ستائرها..

كل شيء صغير..

كل غرض يحمل رائحتها المحببة..

وكل ذكرى لي هنا معها..

يغلبني الوقت..

وأشتاق إليها..

أغمض عيني..

أحبس الدمعات هناك..

أمنعها من الخروج..

أودع أمي..

أقرأ لها الفاتحة..

وأقوم أصلي ركعات لها..

تزور أحلامي بين حين وآخر..

أشعر وكأنها هنا معي..

تحدثني عن يومي..

أنسى أنها توفيت..

أتعامل كأنها لم تفارقني لحظة..

أضحك معها..

وأرتمي في حضنها..

لأستيقظ فجأة من سُباتي..

عائدًا للواقع..

* * *

أستمع لنجاة تشدو..

لم أعد منصتًا لكلماتها..

صوتها يسرقني نحو الماضي..

الطفولة..

الحلم..

الذكريات..

اعتدت أن أستمع إليها..

من مذياع والدتي..

وهي تتحرك في أرجاء المنزل..

لم أكن أستوعب كلمات نجاة في حينها.. لكنها كانت خلفية رائعة نسجت حولها ذكرياتي..

أتعلم رونق السحر..

وأنضج رويدًا رويدًا..

أتعمق في جمال اللغة في طفولتي..

وأستعذب حلاوة الوصف في مراهقتي..

وأهيم بكلماتها في شبابي..

وغنائي مع والدتي لمقاطع بعينها..

تقيد ذكرياتي إليها بسلاسل من حرير..

ويطالعني وجه أمي المتبسم مع أول مرة أسرح فيها..

تكشف عن أسراري قبل أن أبوح..

آه أمي..

كم أشتاق إليك..

* * *

ينخلع قلبي مع كل كلمة أكتبها إليك أمي..

طفلك أنا أبكي..

في صمت..

بداخلي..

لا أترك العنان لدموعي..

هكذا أعرف الرجال..

أشعر حينًا أنني أصبحت صخرًا..

لا يركن للخيال..

وحين أشتاق إليك..

أركض بحلمي..

وأتمنى أن أراها..

تطالعني في كل ليلة..

* * *

لكم تمنيت في صغري..

أن أكتب لمحبوبتي ألف ألف خطاب..

أما اليوم..

فها أنا أكتب لها الخطاب الأول والأخير..

* * *

تائب أنا عنك أيها الحب..

فلقد حطمت قوتي لسنوات..

أعدو أنا في جوانب الأرض..

رافعًا رايات العصيان..

مُنددًا بالحب والمحبين..

متعاليًا على تلك المشاعر التي رفلت في أغلالها طويلاً..

علا..

تعالي كي أريكِ الرجل الجديد الذي صنعته يداك.. رجلاً لن يكون لك يومًا بعد الآن..

ولن يكون لسواك..

كنت تلقينني دائمًا بسهام شكك القتَّال.. تطعنين صميم إخلاصي لك..

وأنا لم أكن أعرف يومها سواك..

أما الآن.. فأنا أمضي أتعرف بكل فتاة تمر في طريقي.. لا لشيء.. فقط لأرضي غروري الذي حطمته تحت قدميك ولن تشفي معرفتي بهن جميعًا الجرح الذي ارتكبته في حقي.. فأنا وعلى الرغم من كل شيء لن أدفع واحدة لتحبني كما فعلت أنت.. فقط أزهو للحظة بنظراتك المليئة بالغيرة والغضب نحو عشرات الفتيات حولي في كل مناسبة تجمعنا..

على الرغم من أن ضميري يعذبني..

لأنني أخالف ديني وأخلاقي..

أعود بعدها لأختلي بنفسي..

أستغفر ربي..

لم أرتكب أيًّا من الكبائر..

لكنني أخالف ما تربيت عليه..

فتحملي الذنب يا علا..

لن أحمل ذنبنا وحدي..

أنت صنعت هذا الرجل الجديد..

فذوقي صنيعك المشوه..

* * *

لست أدري كم من الوقت بقيت بعيدًا عن الكتابة..

أعلم فقط أنها شهور طوال..

فقد قفز التقويم ما يزيد على الشهرين..

وهاهو دفتر مذكراتي خالٍ منذ يوم وفاتها..

أتأمل الدنيا من حولي..

أحلق ذقني وشعري..

وأذهب للمشفى..

وأجلس في الحديقة..

أسجل خواطري..

شعور غريب لم أشعر به من قبل..

حاولت أن أتبينه فلم يسعفني إدراكي..

شيء ما يخبرني أن سارة هنا..

ألتفت فألمحها واقفة على بُعد تتأملني..

وتضع كفها على قلبها..

أقف قبالتها طويلاً لا أنطق..

أتأمل الدموع تبلل رموشها الطويلة أسألها: "ألن تقولي شيئًا؟"..

فتجيب بأنها لشهرين تتمنى أن تسمعني أتحدث..

* * *

شهور قليلة تلك التي جمعتني بسارة..

لكن أثرها في روحي كأنها عقود..

أعرف يقينًا الآن أنني أحبها..

منظور جديد للحب..

لم أكن أتخيل وجوده..

فهي تتسلل بروحها الأخاذة إلى حياتي فتأسرني..

تحفر السعادة بقلب رزح طويلاً تحت الألم..

تعلمني بقلبها النقي الشفاف كيف يكون الحب..

كيف تتجلى المشاعر..

كيف تتسامى النفس..

تكتب ببراءتها حكايات الأطفال بقلبي..

وتراقص أحلامي الوردية القديمة..

تسرقني من واقع مؤلم..

فأشعر بالسعادة على الرغم من كل شيء..

* * *

صرت أتمنى لو كانت الحب الأول بحياتي..

لكانت وفرت على قلبي شقاءه القديم..

أعرف جيدًا أن قلوب رجال عدة ستحزن يوم تختار سارة أحدهم..

فمن يستطيع مقاومة سحر روحها؟

أي سلطة تلك التي تملكها لتأسر القلوب قبل العيون؟!

أشاهد نظرات الإعجاب بها في عيون الجميع، وتشتعل روحي..

أتمنى أن أخبئها عنهم جميعًا..

أن أضعها في قلبي..

تشفع لها الثقة العظيمة التي تشعها حولها، وتعود توبتي عن الحب تدفعني بعيدًا عنها.. أتمزق بين رغبتي في الابتعاد عن الشوق، وحنيني إليها..

* * *

عزيزتي فاطمة..

ليلتي حبلى بالكدر والضيق.. والسماء قد ابتلعت نجومها وقد اكفهر وجهها وغيمت السحب التي تلبدت عينيها فباتت منذرة بالويل المطير..

انسابت الأيام من بين أصابعي كقطرات الماء طيلة أسابيع طويلة.. وكنت قد اعتزلت الكتابة إليك.. اللهم إلا تلك الرسائل النصية القصيرة التي أبعثها إليك بين الحين والآخر لأبعث في قلبك راحة أحتاجها بأكثر مما تطلبينها.. وحين حانت مني التفاتة لمكتبي ورأيت قلمي وأجندتي التي اعتلى التراب سطحها فمسحتها بباطن كفي وجلست أعيد قراءة آخر خطاب أرسلته إليك في تلك الليلة البعيدة في قاع الدهر وكأن قد مر عليها الكثير.. ففوجئت بأن الغد هو المتمم لشهرين مرًّا على عقود لرتابة الأحوال وقلة الأفعال..

كلما جالت بخاطري أحداث تلك الليلة التي لم تنتهِ أبدًا بمغادرة إيهاب القاعة كأنه في سبيله للحاق بآخر أنفاس الحياة.. عضضت بأنيابي وقواطعي على شفاهي حتى أُدميها وأشعر بمذاق الدم الصدئ في جوفي فأندم ألف مرة على عدم وجودي بجواره في تلك اللحظات أبثه حُبًّا أشتاق لمنحه إياه.. وراقبت معتز يجاهد للحاق به بخطوات واسعة لاهثة ولم تفت على ناظري انتفاضة جسد علا كأنها مقبلة على اللحاق به – وكانت قد سمعت هتافه الأخير العالي – إلا أن جذبة قوية وبحلقة قاسية من خطيبها أعادتاها إلى مقعدها ناظرة إليَّ بنظرة حملت الكثير.. الحقيقة أن الأحداث

التالية لم تكن لتصل إليَّ بأدق تفاصيلها لولا معتز الذي مارس معي دور الحكائين في أزمان الأسلاف الغابرة وكأنه شعر بأتون اللهب المتقد في صدري فأخمده بروعة القَصِّ وأحاله رمادًا ساخنًا وسأروي لك تفاصيل تلك اللحظات كما وصلتني على لسانه..

"كان لاقتحام إيهاب منزله دوي مرعب أفزعني أول من أفزع واقتحم حشود الوافدين المتلئ بهم بهو المنزل الرحب دون حتى أن يشغل باله بمعرفة هويتهم ثم دخل غرفتها حيث الجسد المُسجى والأعين المحتقنة والعبرات الحزينة وألقى بنفسه على الأم العزيزة وقال بلهجة أشبه ما تكون بالبكاء: معتز.. هل...؟

لم يستطع المسكين إنهاء استفهامه وابتلعت دهشتي في سرعة.. فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يحاورني فيها منذ تركنا القاعة عدوًا حتى إنني قد تساءلت إن كان قد لاحظ وجودي أصلاً وأنا أحتل المقعد المجاور له في سيارته..

مددت أصابعي أتحسس وريد الحياة على جانبي اللُغد المترهل وعندما لم أستشعر شيئًا غرسته أكثر علَّني أشعر بنبض وإن وهن ولكن.. لا شيء..

نظر إلى محاولتي البائسة لرؤية بريق حياة مفقود في عينين هرمتين أضنيتا كثيرًا من سهد طال لراحة ابن وحيد جاء بعد محاولات عديدة وعلاج طويل فكان خير قُرة العين.. وعندما هززت رأسي نفيًا في بطء وأسى تفجرت عيناه عن بكاء مزق نياط قلوب الحاضرين من جيران وأقارب يعج بهم منزل

الأسرة الخاص.. ثم هدأ نشيجه.. وإن ظلت الأدمع تبلل الوجنات المنقبضة من شدة الحزن.. حاولت أن أتماسك فأخفقت.. فهي لم تكن فقط مجرد أم لصديق عزيز بل حمل القلب مشاعر كُثُرًا وهفا العقل إلى ذكريات جمعتنا على ضفاف بحيرة السعادة..

نظرت ولآخر مرة إلى وجه جعل للطيبة شكلاً وللحب هيئة وتعجبت من الغضون التي اعتادت أن ترسمها سنوات العمر التي تعدت السبعين ونيفًا.. فقد استقامت وبات مرآها عسيرًا وكأنها لم تكن.. وانزوت التجاعيد وراء شبه ابتسامة ملأت الوجه الصبوح.. أكاد أقسم إنها لم تكن موجودة حين خطونا لغرفتها لولا استحالة المقسوم به وغلظة اليمين العظيم.. نزلت بعيني لأرى إيهاب وقد ألقى بنفسه فوق الصدر الضامر بفعل السنين.. وقد تشبث بردائها بكلتا يديه كأنه يريد عودة إلى الرحم المكنون وقد انطلق في مناجاة صامتة معها تعجز عن وصفها الكلمات مهما كثرت.. وكأن مناجاته قدمت من عالم حالم أو من ذلك البرزخ الضيق الفاصل بين بحري الحقيقة والخيال"..

تلك كانت رواية معتز كما رواها بحذافيرها يا فاطمة.. لا تزيد حرفًا ولا تنقص.. أتذكرها كأنني أراه أمامي الآن على الرغم من مرور الأيام الطويلة.. أما ما تلى ذلك فأنت على قليل معرفة به وأصدقك القول إن أخبرتك بأنني لست بأعلم به منك على الرغم من أنني كنت في موقع الحدث كما يقال..

سقط إيهاب في دوامة العزلة والتوحد وتقوقع على نفسه بشكل فريد وظهر كأنه قد فقد كل دافع له للحياة.. فوالدته – على حد تعبير معتز – كانت المحور الوحيد الذي يدور حوله.. خاصة بعد فقده علا.. وعلى الرغم من الغصة المؤلمة التي منعتني من الحديث في تلك اللحظة فإنني قد تجاوزتها وأنا لم أتوقع قط أن ينهار إلى هذا الحد.. وعندما بدأت رياح اليأس في الهبوب علينا خرج من كبوته كأنها لم تكن وانطلق يستمتع بملذات الحياة وسط نظرات الدهشة والتعجب من كل المحيطين وكأنه يعوض نفسه عن كل ما مرَّ عليه من وقت رهين عزلته الاختيارية..

اشتقت إليه في تلك الفترة كما لم أشتَق لأحد من قبل.. اشتقت لنظرة الإعجاب في عينيه وصوته الرجولي القوي الحنون الشبيه بضربات العازف على أوتار القانون.. وظننت أن الروح في سبيلها للعودة إليَّ حينما يعود هو ويستكين قلبي المتهافت إلى قطرات تروي الظمأ المستعر في دواخله..

أيام الحب وأيام العذاب.. وجهان لعملة واحدة يا فاطمة.. لا يوجد حب دون عذاب وإن اكتملت أركانه.. دارت عملتي لسنوات طوال حول محورها.. وتمنيت أن تسقط على الجانب المشرق منها.. إلا أنها قد استقرت على أيام العذاب ورفضت أن تتزحزح قيد أنملة وكأنه قدرٌ قد سُطر دون أي سبيل للتغيير.. أبكي في الصلوات وأصوم رغبةً في بضع ساعات قد يستجاب فيها لدُعاءٍ تتراكض كلماته على لساني سواء علنًا إن كنت وحيدة أو سرًّا إن

كنت غير ذلك.. تحاول أمي أن تخرجني من بئر عميقة جدرانها حُزن وقاعها أسى فتفشل.. ثم تردد همهمات أفهم منها حاجتي إليك فأنت أقرب إليَّ من الروح نفسها..

أراه أمامي مُنغمسًا في حديث مع هذه أو مزاح لا يتوقف مع تلك.. وألمح نظرات الإعجاب في عيونهن.. وكل منهن تتمنى أن يكون من نصيبها فأغرق أكثر في دوامة أحزاني لا ألمح فيها سوى يد معتز الممتدة دوما لمحاولة إسعادي على الرغم من معاملتي الجافية له وقسوتي عليه وكأنني أحمله ذنبًا مما يسببه صديقه لي..

يقابلني إيهاب فيبتسم في وجهي ولسانه لا يتوقف عن شكري عن كل ما فعلته من أجله فأبتعد عنه قبل أن تفضحني النظرات والكلمات عما يجيش بداخلي..

وكأن الهموم لا تأتي فرادى..

تطاردني أضغاث أحلام حتى رهبت النوم وتجنبته.. وما إن يغلب جفنيَّ النعاس ويثقلهما الكمد حتى يهاجمني كابوس لا يتوقف..

أعدو ببدني المغطى بأسمال مهلهلة بالية في وادٍ واسع ممتد بين جبلين مهيبين لا أرى نهايته ولا ألمح حولي أحدًا من البشر وتؤلمني قدماي من الركض فوق الأرض الصخرية الملتهبة.. أركض بلا نهاية وبلا هدف.. ثم لاح فجأة ذلك الوعل العظيم يسرع صوبي وأجد نفسي على حين غفلة أعدو في نفس اتجاهه يجرني خلفه بشعري الذي انعقد مع قرونه المتشابكة الغليظة

كأغصان الأشجار الضخمة وتصرخ كل خلية من خلاياي بـألم هائـل.. أحـاول التملص منه فما أزداد إلا انجذابًا ومـا يـزداد هـو إلا سـرعة.. أديـر بـصري ناظرة أيان نتجه فأباغت بجرف رهيب في مواجهتنا ونقـترب منـه بـسرعة كبيرة ثم يقفز الوعل بلا تردد ساحبًا جسدي خلفه..

أفيق لأجد رأسي غارقًا في وسـادة مبللـة مـن قطـرات العـرق ودمـوع صامتة تنهمر من مُقلتيَّ عذابًا متجددًا غير مكذوب..

لطالما أثار شعري الطويل إعجابك وكنت تثنين عليه يا فاطمة.. ولكـن كـأن هذا الحلم ما هو إلا إنذار من عقلي الباطن لـما يحـدث علـى أرض الواقـع.. فمـشهد خصلات شعري التي زاد تساقطها بغرابة في الفترة الماضية يفزعني حقًّـا.. خاصـة مع وجنتي اللتين ازداد احمرارهما بـشكل عجيـب حتـى اضـطررت إلى اسـتعمال بودرة الوجه مع مقتي لها لإخفاء توردهما المبالغ فيه..

ألمح نظرات القلق في عيني أمي وأعرف ما يجول بخاطرها.. لكنني أفسر ذلك بحالتي النفسية السيئة التي ترفض أن تبقـى حبيـسة الـضلوع وتـصر علـى الظهور عليَّ بأعنف ما يكـون.. أدعـو الله أن تكـون مخطئـة يـا فاطمـة.. فأنـا لا أتحمل المزيد من المصائب فادعي معي..

المكوية بنيران الويل..

سارة

* * *

الفصل الثاني عشر: وجعي

لا أعرف لماذا أقارن دائمًا بينهما..

سارة وعلا..

ولا يُدهشني أن تربح كفة سارة دائمًا..

تربح بنظرتها الحنون..

وتربح بطيبتها الآسرة..

تربح بكلماتها المواسية..

وبضحكتها الرائعة..

تربح بصمتها المتأمل..

وبحديثها الشائق..

تربح بجمالها البريء الأخاذ..

وببساطتها الشديدة..

تربح بوجودها المُحبب..

وغيابها المشوق..

تربح بمكانتها في قلبي..

التي تكبر يومًا بعد يوم..

مع كل فعل تؤديه..

تربح بثورة غضبها الجامحة..

تبهرني بقدرتها على التحدي..

ويعجبني إصرارها على الحق..

وتربح بضعفها وحاجتها إليَّ..

أشعر أنني مسئول عن حمايتها..

وأنها تركن دائمًا إليَّ..

تخسر فقط أمام علا لو كانت مقارنتي في التجمل بالزينة..

تخسر حتمًا لو كنت أقارن غيرتهما..

فسارة لا تمتلك غيرة علا المفرطة..

كانت علا تتفنن في افتعال شجار لأنني تحدثت مع مريضة أو قريبة.. تتهمني دائمًا بالخيانة..

أما سارة فأشعر وكأنها لا تشعر بالغيرة نحوي..

أشك أحيانًا في أنها لا تحبني..

على الرغم من أنني قد تغيرت كثيرًا..

لقد كنت من قبل مكرِّسًا حياتي من أجل علا.. لم أعرف سواها طوال عمري..

أما الآن فها أنا أتوسع في معارفي..

أتحدث للجميع بحرية..

وأشارك في كل حدث اجتماعي..

أعوض خسارتي الأسرية..

بمئات الأصدقاء والصديقات..

كل ذلك لا يزعج سارة أبدًا!!

* * *

أجلس مكاني..

حول المائدة الضخمة..

في حفل الزفاف الأنيق..

يلتف حول المائدة عشرات الشباب والشابات.. الكل يتحدث في صخب..

يجذبني لون شراشف المائدة الوردية..

لا أعرف لماذا يذكرني بسارة بالذات..

لم أقابلها منذ فترة طويلة..

ربما أتعمد تجنب لقائها الأخاذ..

كي لا أتعلق بها أكثر..

أحاول أن أتشاغل عن خواطري عنها..

فأتبادل الحديث مع معتز..

لكنني سرعان ما أتململ..

يخلع معتز سترته الفاخرة..

ويسارع للانضمام للشباب في حلبة الرقص الصاخبة التي تعج بأصدقاء العريس وأقاربه من الرجال، وتبدأ تلك الفتاة الحسناء حول مائدتي تجاذبني أطراف الحديث..

هي إحدى صديقات العروس الجميلات..

اسمها سيلفيا..

أين سمعت هذا الاسم من قبل؟!

ربما قابلتها في مناسبة سابقة..

يدق هاتفها..

فأبتعد قليلاً كي تتحدث بحريتها..

ويخترق اسم "سارة" شرودي..

فأنتبه لحديثها..

لم أفهم شيئًا من ردودها الغامضة..

ولم أستطع أن أسألها..

أسارع خارجًا من القاعة..

أنشد البحر ونسمات الليل الهادئ..

أشعر بوجهي يتصبب عرقًا..

هل أريد رؤيتها أم أفر منها؟

يستوقفني لون الزجاج الملون الذي يزين مدخل القاعة.. زجاج في لون الزمرد الصافي..

تمامًا كعيني سارة البريئتين..

أبتسم..

أمد أصابعي.. أخلع وردة بيضاء من إحدى الباقات المتراصة.. أتأملها بتأنٍّ..

وأستنشق رحيقها الذكي..

وألتفت خارجًا بسرعة..

تصطدم بي فتاة متعجلة..

وتتناثر أشياؤها على الأرض..

أسارع بجمع ما سقط معتذرًا..

وألتفت لأناولها أشياءها..

ويفاجئني أن الفتاة قد اختفت داخل القاعة..

لم ألمح سوى لون فستانها الأبيض اللامع عندما صدمتها..

ألتفت أنظر في أشيائها..

مرآة فضية أنيقة..

ومفكرة صغيرة جدًّا مكتوبًا فيها بخط منمنم.

ومفتاحان معلقان بميدالية مذهبة ترسم حرف الـ"E" فأتساءل متعجبًا:

هل لم تلاحظ في عجلتها أنها أسقطت شيئًا؟!

أعود للقاعة..

أبحث عن صاحبة الرداء الأبيض..

يفاجئني أن وصيفات العروس كلهن يرتدين الأبيض.. كيف أغفلت ذلك؟!

أجول بين المناضد أحاول أن أجد صاحبة الأشياء الضائعة.. لكنني أعجز في وسط الزحام..

أعود لأخرج من القاعة..

وأنطلق نحو الشرفة الضخمة شبه المظلمة أحاول أن أنفرد بالبحر لحظات..

ألقي فيه جزءًا مما يعتمل بقلبي..

أقف أدندن بعضًا من أبيات الأغاني الحزينة، ووجه سارة يرتسم على صفحة الموج أمامي.. لا أعرف لماذا أصبحت جزءًا لا يتجزأ من أفكاري..

أغمض عيني فأراها تتمثل أمامي من جديد..

وأسترجع صوتها الجميل تحدثني..

رباه.. كم أشتاق إليها!

أكابر وأعاند نفسي..

وأمنع نفسي عنها..

وهي تتردد في صدري مع أنفاسي.. أتحاشاها.. وأتمناها..

أتجنبها.. وأبغي لقياها..

أخشى أن يتكرر وجعي..

وأخبئ قلبي خلف ضلعي..

لكنه يتمرد..

يناديها في دقاته..

ويهفو إليها في سكناته..

* * *

يقطع خواطري صوت الحركة الطفيفة..

أتلفت حولي..

فألمح شبحًا لفتاة واقفة في الظلام..

توليني ظهرها..

وتتطاير أطراف وشاحها مع نسمات البحر الشديدة.. أقف لحظات أتأملها..

تقف في سكون بليغ..

حتى لتبدو وكأنها تمثال موضوع هناك..

بشيء من الفضول..

أقترب..

أقف خلفها..

وشعور ما يدفعني للحديث إليها..

أبعد الفكرة الجريئة من رأسي..

وألتفت لأغادر..

ويومض في عقلي اسم سارة..

وتحتبس أنفاسي..

فأعود أدراجي..

أقول بصوت خافت هو أقرب للتساؤل: "سارة؟!"

ويدهشني أنها تركتني هاربة..

لوهلة ظننت أنني أفزعتها..

لكنها بمجرد أن اقتربت من مدخل القاعة المضيئة..

تأكدت ظنوني..

إنها سارة..

وما زاد دهشتي..

أنها صاحبة الفستان الأبيض اللامع..

أحاول أن ألاحقها..

أتجنب لفت الأنظار كي لا أحرجها..

لكنها تختفي في زحام الحفل مرة أخرى..

أُخرِج هاتفي..

أتصل بها عدة مرات..

يرد الرنين المتصل مرات عديدة..

قبل أن يخبرني الصوت المسجل أن الهاتف مغلق..

أزفر في ضيق:

ماذا حدث؟

هل هي غاضبة مني لسبب أجهله؟

أتذكر سيلفيا.. نعم هي زميلتها في شركة الأدوية التي شاركتها في تنظيم المؤتمر الطبي الضخم الأخير..

أبحث عنها..

وأسألها دون مقدمات..

إذا كانت تعرف عنوان سكن سارة..

تتأملني بنظرة تعجب شديدة..

فأخبرها أنني أريدها في شيء مهم للغاية..

تخبرني في تشكك أنها هنا في الحفل..

فأرد بحزم غير قابل للنقاش:

"إنها غادرت للتو"..

في تردد تخبرني بعنوانها..

أشكرها وأسرع مغادرًا..

لكنها تناديني بإلحاح:

"دكتور إيهاب.. دكتور إيهاب"..

أتوقف على مضض..

فتنبهني في استنكار:

"لقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة ليلاً"..

أرد وأنا مغادر:

"إن الأمر يستحق"..

* * *

أستقل سيارتي..

وأشرد..

أحاول أن أتذكر ما قد أكون ارتكبته وضايقها مني لهذا الحد..

لا أتذكر..

فأنا بالكاد رأيتها في الأسابيع الأخيرة..

مرات قليلة..

كلها صدفة..

لا نتحدث سوى عن العمل..

وكأننا غرباء..

أيكون ذاك سبب ضيقها؟

وهل يكون هذا رد فعل متوقعًا منها؟

أصل للعنوان..

وأقف مترددًا أمام البناية..

ماذا أفعل هنا؟!

حتما جننت بالتأكيد..

أرفع وجهي للسماء..

أطلب الهداية من الله..

ألتقط نفسًا عميقًا..

أغمض عيني..

أبتهل للحظات..

وتبرق في عقلي فكرة مجنونة..

لقد دفعتني قدمي عند منزلها..

لسبب واحد..

لا يمكن أن يكون هناك سبب آخر..

أزفر في ارتياح..

وأخطو مبتسمًا بخطوات واثقة إلى داخل البناية..

* * *

أدق الباب..

وأنتظر دقائق طويلة..

حتى أسمع الحركة من الداخل..

أقف مشدودًا كظبي ينتظر خطرًا محدقًا..

ينفتح الباب..

وتخيب ظنوني..

فلم تكن سارة هناك..

سيدة في أوائل الخمسينات..

ترتدي طرحة الصلاة البيضاء الطويلة..

لها ملامح هي عنوان الطيبة..

تبتسم في ود..

وتمتلك عيني سارة..

أبتلع ريقي..

وأحاول الابتسام..

أعرفها بنفسي:

"دكتور إيهاب"..

ترحب بي في تهذب..

بدا من ترحيبها أنها سمعت عني..

لكني تبينت نظرتها المتعجبة من وقوفي ببابها..

وأخبرها بقراري..

وأنا لا أزال واقفاً بالباب..

لقد جئت أخطب سارة..

ترتسم ملامح الذهول على وجه والدتها..

أخبرها في جدية أنني لا أمزح..

فتضيق عيناها تتأملانني في شك للحظات طويلة..

تدعوني للدخول..

تجلس..

تسألني في تشكك عما أريده بالضبط! !

فأعيد كلماتي..

ويفاجئني سؤالها.. إن كنت متأكدًا!..

لم يكن هذا رد الفعل الذي توقعته..

فأسألها بتعجب:

"هل هناك ما يمنع؟"

"هل هي مخطوبة أو ما شابه؟"

تتجاهل والدتها أسئلتي..

وتتأمل بدلتي..

وتسألني: هل كنت في الفرح نفسه اليوم؟

أهز رأسي إيجابًا..

وأطلب منها أن أرى سارة..

تستأذن لتتركني..

تعود والدتها..

تخبرني وهي تهز كتفيها في استسلام..

أن سارة تغلق حجرتها عليها ولا تجيب..

وتسألني.. عما حدث اليوم!..

فأخبرها القصة بتفاصيلها..

وأعيد إليها أشياء سارة التي سقطت منها..

فتسألني وهي تنظر للأشياء في كفيها:

"إذًا أنت لم ترَ سارة؟"..

فأجيبها: "نعم لم أرَها"..

تهز رأسها علامة فهمها لشيء ما..

تخبرني أنها تحتاج وقتًا لتفكر وتسأل..

فأستأذنها لأنصرف..

* * *

عزيزتي فاطمة..

عجيب أمر تلك المرأة..

تختلف بداخلها الأحاسيس وتتنازع الأضداد وتأبى أن تُظهر هذا كله إلا حينما يحين وقته المناسب.. أندهش من قدرتها الهائلة على الابتسام والعبرات تترقرق في العيون.. تمسحها سريعًا وهي تشق طريقها فوق الوجنتين الجميلتين المنتفختين بفعل الضحكة التي تكشف عن ثغر مفتوح وأسنان بلورية بيضاء..

أحن لسنوات الصغر فأستلقي على الأريكة ساندة رأسي إلى فخذها المريحة فتمتد يدها نحو شعري تتحسسه بأصابع حانية ثم تبدأ في تضفيره في جديلتين جميلتين على جانبي الرأس في حذر.. فتغمرني أكثر وأكثر في ذكريات ظننتها قد توارت وحجبتها أستار الدهر.. إلا أنها ظلت كامنة في ذلك الركن المظلم من عقل كل منا..

ألمحها تقوم من مخدعها الذي انتقلت إليه للمبيت بجوارها في الأسابيع الماضية وكأن غرفتنا الواسعة قد ضاقت عليّ واختفى منها الهواء.. الهواء!! أين الهواء؟ لم أعهد الإسكندرية غارقة في كل تلك الرطوبة من قبل والقيظ يحيط بها من كل جانب وكأنها قد قررت أخيرًا أن تترك معركتها الأبدية مع مياه البحر وتستسلم وغاصت بما فيها وبمن فيها في أعمق أعماق الصحراء.. أم أنني قد فقدت كل رغبة وطاقة في استنشاق الهواء بقوة ليملأ رئتي الجافتين؟!

أقول: إنني ألمحها تغادر السرير وتتسلل بخطوات حذرة خشية إيقاظي إلى حيث تحتفظ بصورة يوسف فتبحلق بها كثيرًا ثم تقبلها وتعيدها إلى مكانها المعتاد وترجع بنفس الخطوات فتقبلني وتبلل وجهي بالدموع فتمسحها بطرف كمها وتضع كفيها متقابلتين تحت رأسها وتحاول أن تغرق في سبات لا يأتي إلا لمامًا..

ربما كان مقدم الحفيد لطفًا ورحمة من الله للتخفيف على الجدة صغيرة السن كبيرة المقام والعقل.. وربما كان قرة عين لخالة ألزمها المرض الفراش وربما كان تعويضًا للأم الغالية عن فراق الأخت وبُعد المسافة.. وربما كان ذلك كله سويًّا.. لكن المؤكد أن الله قد وهبك يوسف ليدخل الفرح المنزل الخاوي بعد طول اشتياق..

سنظل نتذكر طويلاً محادثة محمود وصوته الراقص طربًا ليبشرنا بقدوم المولود الجديد ونحن نخطو بخطوات ثقيلة عليلة خروجًا من عيادة الطبيب الفخمة في وسط البلد نحمل خبر إصابتي بداء الذئبة الحمراء أثقالا فوق رءوسنا.. تلاقت أعيننا الدامعة بدهشة ثم بدأت البسمة في الانتقال إلى الشفاه بعدوى الضحك الشهيرة حتى غرقنا في قهقهة عالية لفتت إلينا أنظار المارة فوضعنا أيدينا على أفواهنا نكتم ضحكًا يأبى أن يتوقف كما تأبى الدموع..

تعبث بنا الأقدار يا فاطمة كما تشاء.. تمامًا كلهونا القديم بالبنانير.. أتذكرينها أم أراكِ قد نسيت؟ بنانيرنا المستديرة الجميلة المزينة

بألوانها الخاطفة للأبصار.. حمراء وزرقاء وخضراء وصفراء وبرتقالية.. وبنورتك السوداء المميزة التي طالما نفرت منها.. تستقر كُلٌّ في موضعها في سكون ثم تأتيها ضربة تحركها حتى تستقر وتتوقف إلى أن تأتيها ضربة أخرى من بنورة أخرى وهكذا.. تبدو لي الحياة وكأنها قد استقرت وأبدأ في الاعتياد على رتابة الأيام إلى أن يأتي ما يقلب كل حال رأسًا على عقب..

ألقي بنفسي في التيار كما فعلت دومًا فيجرفني سيل القدر المعلوم.. أبتعد عن إيهاب وكل ما يقربني إليه وألوم نفسي على بذل مجهود من أجل إعجاب مزيف جعلني أشيد قصورًا من الرمال أطاحت بها أضعف الأمواج وأبدأ في الإدراك أنني قد تعلقت به وخفق قلبي إليه على الرغم من أنه لم تصدر منه أي بادرة توحي بأن ما في قلبه مثلما يعتمل بداخلي.. أغرق في أحزاني وأتحجج لأمي بالمرض فتُلح عليَّ كثيرًا أن أذهب للطبيب فأرفض باستماتة حتى تيأس وترحل..

يطاردني معتز باتصالاته المتكررة حتى أضطر للإجابة فيتحدث كثيرًا وأنا أستمع وأجيبه بهمهمات كل حين وآخر حتى ينجح في إخراجي من بحر تعاستي ويرسم البسمة على وجهي بحديثه اللطيف المتأدب فأسمع صوته عبر الهاتف يقول في ارتياح وهو يتنهد: الآن يمكنني إغلاق المكالمة.. يكفيني وجود الضحكة على أجمل وجه رأيته في حياتي.

يحمر وجهي خجلاً وأشعر بالحرارة فيه دون أن أتحدث ولا ينتظر هو جوابًا فيلقي التحية وينتظرني حتى أغلق الخط دون إضافة كلمة أخرى..

يلحُّ عليَّ في اللقاء فأرفض في البداية بغضب ثم بإحراج ثم بأدب ثم برجاء تأجيل اللقاء.. يتجنب الحديث عن صحتي – وقد شعر بأنني مريضة على الرغم من رفضي الحديث عن ذلك – ويتحاشى بأن ينطق بحروف اسم خليله في ذكاء من يعلم فأحترمه كثيرًا..

أذعن لرغبات أمي وأذهب للطبيب وأجري التحاليل.. على الرغم من ثقتي في النتيجة.. فإصابة خالتنا سهام بالمرض نفسه ليست بالشيء البعيد عندما كانت في عمري نفسه تقريبًا.. أتناول وصفة العلاج الضخمة المتلئة بأسماء الأقراص والمراهم على جانبيها ولا أصدق أنني سأكون قادرة على تحمل تناول تلك الأدوية كلها.. فما بالك بالمرض نفسه؟!

يزداد اهتمامه بي يومًا عن الآخر.. في حين تنقطع أنباء إيهاب تمامًا وكأنه لم يكن موجودًا من قبلُ.. أبحث عن اسمه على الهاتف حتى أتوقف أمامه وأثبت إبهامي على زر الاتصال فتتصلب حتى يخبو ضوء الشاشة الخافت دون اتصال..

أجلس مع أمي وأحدثها عن كل ما مرَّ بي من أحداث منذ سفرك ونوباني في وحدتي وأستشهد بخطاباتي إليك التي أحتفظ بنسخة ثانية منها لنفسي فأُذكِّر نفسي بما غاب عني في فضاء الذاكرة بما رحبت.. تنصت في صمت وألمح الانفعالات تتبدى على وجهها ما بين حزن وفرح.. قلق وأمل.. تختلف التعبيرات دومًا إلا من إحساس الشفقة.. فهو ظاهر أبدًا لا تخطئه عين.. لم تكن أبدًا صديقتنا بل كانت تعويضًا حقيقيًّا عن أب يغيب طويلاً في رحلات عمل متكررة وأخ توفاه الله صبيًّا وتوزعت الأمومة بين هذا وذاك فاختفت..

تطاردني الذكرى المريرة في كل مكان حتى أراه أمامي متمثلاً في الظلام وكأن الجرح قد كتب عليه أن يفتح كلما قارب على الاندمال كمن يغرس خنجرًا مسمومة في الصدر ثم يديرها ليتيح للهواء الدخول فاعلاً أفاعيله.. تدعوني صديقتي إلى حفل عرسها وأسوق الاعتذار تلو الآخر حتى تقسم عليّ بسنوات الصداقة كلها أن تقاطعني إن لم أكُ من الحضور.. تلح عليّ أمي واجفة أن تذهب معي فأرفض في إباءٍ وأخبرها أنني لم أعد صغيرة وقادرة على الاهتمام بشئوني.. أراه هناك على غير توقع فأصافح صديقتي وأهرب إلى شرفة القاعة الفاخرة علني أجد نسيمًا قادرًا على الترطيب فأراه يقف وحيدًا موليًا ظهره إليّ وكأنني مقدر لي أن أراه كلما رحت أو غدوت.. أهرب وتتسارع خطواتي وأسمع صوته المتردد يأتي من خلفي يريد التيقن مني فلا ألتفت وأقاوم رغبة هائلة في الانزواء بين ذراعيه أبثه حبًّا كامنًا وعتابًا أليمًا صامتًا..

يستمر معتز في الإلحاح لمقابلتي بلا كلل ولا ملل.. وكأن حياته كلها قد توقفت في سبيل الوصول إلى مسعاه.. أرتدي ملابس فضفاضة دون الكثير من الاعتناء وأضع عويناتي الداكنة فوق عيني لتخفي تورمًا بدأ يظهر في وجهي بسبب العلاج ثم أسير بخطوات حذرة نحو لقاء تحاشيته لوقت طويل.. يبدأ بالحديث فأقاطعه راوية له كل تفاصيل مرضي وأضع أمامه الحقائق كاملة.. لا أستطيع أن أصف نظرة الحزن الهائلة التي بدت في عينيه في تلك اللحظة.. حزن صافٍ نقي لم أعتد أن أراه في عين أحد بعدك يا فاطمة.. حزن محب حقيقي قادر على أن يهدم أعتى السدود إن حان وقت

فيضانه.. رأيت بعيني انعكاس صورتي على دمعة دافئة رقيقة نجحت في اختراق السور الحديدي وسالت لسنتيمترات فوق وجنته قبل أن يزيحها بحركة خفية ماهرة..

انتظر حتى انتهيت من حديثي ثم تابع حديثه وكأن شيئًا لم يكن.. أرمقه باندهاش وهو يتحدث عن إعجابه بي قبل أن يحدثني وكلام آخر كثير شغلتني عنه نظرة الصدق الواضحة في مقلتيه.. حسبته سيتراجع.. سيتردد.. سيصمت.. إلا أنه قد استمر حتى مال عليَّ في النهاية قائلاً: أريد سارة كما هي.. أريدها قُرة عين لي هي وذريتي منها إن أذن الرحمن.. لا ولن يبعدني مرض عنها.

رجوته أن يتمهل في التفكير.. فرفض.. أخبرته أنني لست بقادرة على أن أتخذ مثل ذلك القرار في هذه الحالة النفسية التي أمر بها.. ورجوته ثانية أن يعيد التفكير فوافق بعد إلحاح..

أعض على شفتيَّ حتى أدميهما ويمر بخاطري اسم تمنيته أن يحل محله في تلك اللحظة ولكن تنتشر آمالي وأمانيَّ في الهواء هباءً منثورًا..

الخالة الجديدة..

سارة

* * *

الفصل الثالث عشر: أميرة البراءة

أقسم هذا القلب في مرته الأولى..

إنه لن يحب سواها..

وكان اليقين يغمره..

أنه إن تركها..

سيبقى على ذكراها..

وفاجأه القلب..

بأنه عاد ينبض بالحب..

ليس لها..

فهذه المرة..

هو ينبض لأميرة البراءة..

للملكة الشموخ..

لعروس الأحلام الجميلة..

* * *

ماذا يتبقى لي بعدها؟

لا شيء..

ذكرى يختلط فيها الفرح والشجن..

أنساها ببطء..

تتسرب بعيدًا عن قلبي..

تهدم بهجرها سدود قلبي..

وتُضيِّع حبي لها هباء!

تخرج من أيامي قطرة قطرة..

كحبات ساعة رملية..

تتزاحم على صمام وعدي بالحب..

تتسلل خارجة منه..

وأعرف يقينًا المصير..

ستقلب الساعة كحياتي رأسًا على عقب..

* * *

أجمع مئات الكتب..

كتب رومانسية لطالما قرأتها..

أشعار وقصص ومقالات ومذكرات..

أقلب فيها..

عن أي حب يتحدثون؟

الحب غير موجود بهذا الزمان..

إنه وهمنا الخاص..

نصنعه لندفن الحقيقة فيه..

نزينه بآلاف الأحلام الوردية..

أقلب الصفحات بسرعة..

أصل لعذابات الحب..

أتوقف عندها طويلاً..

كيف كنت أغفلها قبل أن أقع في ذاك الشرك؟

أقرأ وأدمع..

أقرأ وأتوجع..

وفي النهاية أجمعها في حقيبة كبيرة..

تمنيت أن أدمرها..

كي لا يخطو سذج آخرون مثلي في حقل الألغام..

قبل أن يكتشفوا ألا فكاك من القدر المحتوم..

لو كنت مناضلاً شجاعًا..

يكشف مكنونات قلبه..

لوقفت أهتف عاليًا:

لا للحب..

فليسقط الألم..

ولينتهِ العذاب..

ولترحل القلوب..

لا للحب..

* * *

لم أعد أشعر بذاك الألم الذي شعرت به أول مرة..

فهل لي أن أدعي أنني لم أحب سارة كما أحببت علا؟

أنفض الفكرة من رأسي بعنف..

أنا لم أكن أخدعها..

لقد أحببت أن أكون معها..

بل أنا من نشدت ذلك..

وسعيت خلفه طويلاً..

وسعدت بعدما ملكته كما لم أتخيل للسعادة أن تكون..

لكن فراقها جاء مختلفاً..

* * *

أدور في حجرتي..

كالأسد الجريح..

أشتاق إلى وجودها بحياتي..

تملؤها..

تحفر فيها ألف بسمة..

تسعدني..

رباه.. كم أحتاج إليها!!

* * *

أغرق في حيرتي حتى النخاع..

هل أفهم من صمت سارة.. رفضها طلبي؟

لماذا لا تسمح لي برؤيتها

أو حتى التحدث إليها؟

لماذا تختفي وتتخفى؟

ما جرمي الذي اقترفته بحقها؟

* * *

أبعث إليها بألف رسالة

ويؤكد لي الهاتف أنها تتسلمها جميعًا..

فلِمَ تتجنب الرد؟

أفترض في خيالي ألف احتمال..

أذهب إلى سيلفيا صديقتها..

أطلب وساطتها..

وأنتظر أي بارقة أمل..

أعاود الاتصال بوالدتها..

منتظرًا لمحة موافقة..

أو رفض..

لم أعد قادرًا على معرفة أخبارها..

أتمنى أن أنتقل لدائرة الضوء..

أحتاج لأن أعرف..

* * *

يأتيني ردها المختصر..

أنها وافقت على مقابلتي..

أخيرًا..

لا أصدق نفسي..

لطالما انتظرت..

أن أروي عطشي لرؤية عينيها..

وأن أستمع لألحان صوتها..

وأن أريح قلبي من هواجسه..

لكن عقلي لا ينام..

ولا يمل..

يعذبني بتخيلاته لردودها..

نعم؟

تحبني؟

لا؟

تكرهني؟

كأن الوقت شخص حائر يمسك بزمام قلبي.. وكأن قلبي زهرة يتسلى بتقطيع أوراقها متسائلاً: تحبني؟ لا تحبني؟

يدركني شيء من مس..

سأجن قبل أن أعرف منها ردًّا..

* * *

أعجز عن النوم..

تطاردني أسوأ كوابيسي..

أستيقظ لاهثًا..

أتصبب عرقًا..

أسرع لهاتفي..

أهم بمخابرتها..

لكنني أمتنع في اللحظة الأخيرة..

لقد وافقت أخيرًا على مقابلتي..

فلن أجازف بارتكاب حماقة قد تجعلها تعدل عن رأيها..

أنتظر ساعة اللقاء..

كمن ينتظر في أتون مشتعل..

يحترق عليه ثباتي..

وتتبخر مع الوقت أحلامي..

* * *

يقترب موعدها..

أستعد باكرًا..

أخشى أن أتأخر ثانية..

أذهب في طريقي..

أكاد أصطدم بألف حافلة في طريقي..

فبالي مشغول بها..

فأنا أقود بعقل يعجز عن التفكير بسواها..

* * *

تكاد قدماي تتهاويان تحتي..

كأن بجسدي ألف مرض عضال..

تهم أن تتحدث..

أم أنني أتوهم؟

أتردد لحظة..

لكنني أقرر أن أتسلم دفة الحديث..

أقود مركبي في بحرها..

وأنا أنشد برًّا في شواطئها البديعة..

أسترسل..

أتحدث كثيرًا..

كأنني أخاف أن أنسى شيئًا..

لا أرغب أن تفوتها أي كسرة خبز من مشاعري التي لطالما كتمتها عنها..

أتحدث وأتحدث..

كأنني محامٍ أدافع عن قلبي..

خوفًا من حكم جائر عليه بالإعدام..

لم أعد متأكدًا مما أقول..

أشعر بأنفاسي تتقطع..

لكنني لا أتوقف لألتقطها..

كأنني أخشى أن تنطق بحكمها الآن..

ربما كان حكمها في صالحي..

لكنني لن أجازف..

فجأة يتوقف سيل الكلمات..

لحظات طويلة من الصمت..

أسمع فيها دقات قلبي المرتعب في وضوح..

أحاول أن أسترجع الكلمات التي نطقتها حالاً..

ماذا قلت؟

لكنني لا أتذكر..

هل أخبرتها أنني أحبها؟

هل تعرف الآن ما بأعماقي؟

أحاول أن أقرأ عينيها..

ليتني أقرأ ما يخطر ببالها..

كي أنهي حيرتي..

ما عدت أملك سوى..

الانتظار..

والأمل..

* * *

حبيبي إيهاب..

لم أتخيل يومًا أن أنطق اسمك مسبوقا بمثل تلك الكلمة..

بل لم – ولا أعلم إن كنت ستصدقني أم لا – أتخيل أن تغلبني الجرأة وأقدر أن أنطقها لكائنٍ من كان..

لها مذاق جميل يا إيهاب.. أنطقها فأتمنى أن تطول حروفها أكثر فأشعر بعذوبتها وطيب طعمها على لساني شهدًا لا ينتهي.. أدرك أخيرًا سر إحساس صديقاتي اللاتي يستبدلن بلفظتَي زوجي أو خطيبي تلك الكلمة.. كنا ننعتهن بالتفاهة أو الكِبر ولم يدر ببالنا استمتاعهن وهن يلفظنها..

هذا خطابي الأول إليك.. وربما يكون الأخير.. ويشاء القدر أنك لن تقرأه ولن أكون أنا من المرسِلين.. هذا خطاب منبعه ومصبه في يم من المشاعر يموج في وجدان مضطرب.. ستفوتك قراءة الصدق في كلماتي ولن يكون من حظي أن ألمح انفعالات وجهك وعينيك الشبيهتين بلون الشاي في قدح من الكريستال النقي الشفاف تجري على الكلمات..

تتعجب من التشبيه!! هذا ما ذكّرتني به عيناك عندما لمحتهما لأول مرة.. ظننتك فهمت ذلك.. وإلا ما السر في تلك الهدية العجيبة الرائعة؟!

لـك أن تعلـم أنـني أخـطُّ تلـك الكلمـات فـور عـودتي مـن لقائـك فتستحضرني أغنية قديمة لعبد الحليم حافظ أكاد أقسم الآن إنهـا قـد غُنيـت من أجلي..

نور عيني.. روح قلبي.. حبيبي.. حياتي..

مشتاق لعينيك.. مشتاقلك..

مشتاق وأنا لسه مقابلك..

وفي عز الشوق يا حبيبي..

وفي عز الليل بكتبلك..

أبيت أن أنزع عني ملابسي أو أتناول طعامي أو حتى أتحدث مع أمي التي نهشها القلق نهشًا طيلة فترة غيابي.. ظننت أنني إن انشغلت بـأي شيء قد أنسى بعضًا من الحديث الذي دار وأفقد إحساسًا يتـدفق في جـوانبي.. فمـا يزيد القلب الراقد تحت الرماد إلا حيوية واشتعالاً.. أنت من أحيا قلبًـا قتلتـه بيديك يا إيهاب.. أنت فرحـة كـل نهـار وتعاسـة كـل ليـل طويـل.. أنـت مـن أحببت وجوده وكرهت قربه في الوقت نفسه.. أنت المحيا والممات..

لست بقادرة على روايـة تفاصيل مـا حـدث قبـل اللقـاء.. وكـأن مـن عاشت قبل لقائك إنسانة ومـن تكتـب إليـك الآن أنثـى أخـرى تمامًـا.. أجـل أنثى.. أنثى قد شعرت أخيرًا بأنوثتها وأن حبها ليس ضـعفًا وتعلقهـا لـيس

استسلامًا وقلبها ليس حجرًا أصمً.. بل سالت عليه قطرات العشق قطرةً قطرةً حتى تشقّق ما أحاط به نفسه طوال عمر بائس فسالت المشاعر أنهارًا..

أتذكر فقط يدك تمتد لمصافحتي في سابقة لم أعهدها وكفي تتحرك في حركة لا إرادية لتستقر بين كفين طالما حلمت بلمسة منهما.. أتذكر ضغطة يدك الخفيفة الرقيقة وأشعر بالدفق الواصل بين جسدينا في شعور أعلم أنني غير قادرة على تحمل مثله من فرط لذته ثانية.. مرت الثانيتان كألف ألف سنة مما نحصي.. ثم أفاق عقلي المغيب فجأة فسحبت يدي ببطء وأنا أتحرق ألمًا.. سحبت مقعدًا لي فجلست.. وجلست أنت بمواجهتي فابتعدت بنظري عن ناظريك القويين..

خرج صوت اشتقت إليه من بين شفتيك فأسرتني ولم أستطع أن أنبس ببنت شفة حينما نطقت كلمة "أوحشتني".. كيف جرؤت أن تنطقها يا إيهاب؟ لا أقصد جرؤت.. أقصد كيف استطعت أن تفعلها؟ لم تكن بكامل الثقة حينما قلتها.. ولم تفت عليَّ اختلاجة طرف فمك حينما تكون مرتبكًا أو قلقًا.. لم يستطع الصوت الواثق أن يخفي كل ما كان يجول ببالك.. انتظرت ردي لثوانٍ فلم أنطق.. فزاد ارتباكك فتحاملت على نفسي وخرجت الألفاظ صامتة مني تدعو إليك أن يبقيك الله.. لم يعجبك الرد لكنك لم تشأ أن تزيد إحراجي فابتسمت وبدأت تتحدث..

تحدثت كثيرًا جدًّا يا إيهاب.. تحدثت كما لم تتحدث من قبل وكأنك قد امتنعت عن الحديث طيلة الثلاثة والأربعين يومًا التي لم نتخاطب فيها وحللت القيد عن فمك أخيرًا فانطلقت بلا توقف.. تروي لي ما مرَّ بك وما كنت تفكر فيه.. تروي شوقًا شعرت به عندما ابتعدت عنك ومشاعر قد تأكدت منها حينما ضلَّ بك الطريق وتقطعت بك السبل..

نسيت أن تروي عن عذاب امرأة أحبت كما لم يحب أحدٌ من قبل.. وعن وقت لا تشعر بمضيه إلا بالقرب منك.. وعن أحاسيس كانت تحتاج فقط لكلمات حانية كي تبقى ولا تموت..

مددت يدك باللفافة الصغيرة المغطاة بقطيفة حمراء والمُزيَّنة بورق ملون شفاف.. ابتسمت في إحراج وقلت شيئًا ما عن أسفك لتواضع الهدية وعن ظروفك المادية السيئة وصعوبات العمل وأشياء أخرى من هذا القبيل..

وقتها أيقنت أنك لم ولا تفهمني على الإطلاق..

تحدثت أيضًا عن عقد عمل ما في ليبيا ومقابل مجزٍ وأنها فرصة مناسبة لبناء مستقبلك مع المرأة التي تحبها.. ثم أردفت بحروف مترددة وابتسامة حيية عشقتها: معك يا سارة..

هنا صدر مني فعل أغرقك في بحور الدهشة..

توقعت أن أسعد.. أن أبتسم في خجل.. أن أرفض في عناد.. أو حتى أغادر في صمت.. لكنك - أظن هذا - لم تتوقع قط أن ترتسم على شفتيَّ تلك الابتسامة المريرة دون أن أتحدث..

تذكرت أخيرًا يا إيهاب.. تذكرت سارة بعد طول نسيان وهي التي تتذكر كل تفصيلة فيك.. كل حركة وكل لمحة بصر.. تذكرتني بعد أن أضناني العذاب وزادني الألم مرضًا فوق مرضي..

وعندما حان دوري للكلام حكيت لك كل ما حدث منذ أن قابلتك في ذلك اليوم المطير من الشتاء الماضي.. حكيت لك كل ما تردد بصدري وكتبته إلى أختي الحبيبة عابرًا آلاف الأميال لا تفوق المسافة الفاصلة بين قلبي وقلبك وزدتها أنت اتساعًا بجهلك وجفائك..

يكتبلك عاللي بقاله كتير كتير مداريه..

يوصفلك حبه وسهده وشوق لياليه..

مش قادر على بعدك ثانيه أبدًا أبدًا يا حبيبي..

ولا عارف إيه طعم الدنيا أبدًا أبدًا يا حبيبي..

كما أخبرتك كانت سارة أخرى هي من قابلتك.. سارة لم تخشَ أن تبوح بما يدور بخاطرها دون أن تخفي شيئًا.. سارة التي أخبرتك بحقيقة

مرضها وكيف أن معتز قد شعر بها وأحبها وهي التي لم تحب سواك قط..
وهو يعلم ذلك..

كسرت سارة كل حدود العقل ودمرت عقبات التقاليد تدميرًا وباحت إليك بما لم تبُح به لغيرك – إلا أختي التي تشكل جزءًا مني وليست بغريبة عليَّ – فارتاحت أخيرًا..

كنت مستعدة أن أستمر بالحديث ما طال بي من عمر.. كنت كالمقامر الخاسر الذي يلقي بآخر أوراقه عالمًا مصيره المحتوم.. نصبت لنفسي مقاصل الإعدام وبنيت ضريحي بيدين واهنتين وكتبت اسمك على مذبح أحزاني.. تساقطت دموعك ولم تبُح عيناي الجافتان بأسرارهما.. تمنيت أن أبكي معك وأن أشاركك لأول مرة إحساسًا واحدًا يجتاحك.. حتى في ذلك كان الخفقان هو جليسي الوحيد..

كنت أقوى منك على غير عادتي وتحدثت بلسان طليق.. وعندما أخبرتك أنني أحببتك لم يكن عقلي بقادر على تمييز معاني الكلمات.. وعندما أفاق من غيبوبته اختطفت هديتك وألقيت نفسي في أول سيارة أجرة صادفتني وأرحت رأسي على المسند الوثير فكان إيذانًا بهطول غيث من عيني تأخر كثيرًا..

سمعت رنين الهاتف المتواصل فكتمت صوته بطرف إبهامي دون أن أنظر إلى الاسم.. وعندما تكرر الرنين وظهر اسمه ابتسمت في سخرية مريرة وهتفت من بين دمعاتي هتافًا مصحوبًا بزفير ملتهب: يا الله.

التفت إليَّ السائق في تعجب ثم أحجم عن الفضول.. تكرر رنين الهاتف ورأيت اسمك فأغلقت الهاتف تمامًا..

هل تبلغ سخرية القدر مثل هذا المقدار؟ أنا التي استحييت أن أنظر يومًا إلى رجل نظرة إعجاب ولم يخفق قلبي لأحد من قبل يتهافت على اثنين.. أحدهما يعشقني بلا جرح والآخر يجرحني بأكثر مما يعشق..

من أنا لأقع في مثل ذلك الاختيار؟! لم أكن يومًا الفتاة بارعة الجمال التي ترفض هذا فيتقدم ذاك.. لم يخطئ معتز في حقي مرة واحدة.. بل أحبني واحترمني بأكثر مما فعل أي شخص.. وأخطأت أنت في حقي كثيرًا.. لكن القلب يصيح بحُبِّك أنت مع كل ضخة دم في الشرايين..

أفك الهدية بأصابع مترددة.. أتعلم أن هذه هي المرة الأولى التي أقبل فيها هدية من شخص خارج نطاق الأسرة؟ يغشى بصري البريق اللامع تحت أضواء الثريا الساطعة.. أقرأ بعينين لا تجف دموعهما كلماتك الرقيقة على البطاقة الحاملة صورة دب صغير جميل وكلمة أحبك أنت فقط بحروف إنجليزية لامعة..

تخبرني أنك تعلم أنني أحب الكريستال حينما لمحت إعجابي بالفنجان الخاص بك.. أنت حسن الخط بالمناسبة.. أضحك وأتحدث بصوت عالٍ وكأنك أمامي: لم أكن أحب الكريستال يا إيهاب قبل أن أرى عينيك.

أتأمل في حذر الفنجان الأنيق ثم أديره في خفة وكأنني أحفظ كل جزء منه في ذاكرتي فلا أنساه أبدًا.. ثم تتوقف يداي وتعيدانه إلى المنضدة في عنف..

أحدق في الشرخ الطويل على أحد جانبيه ممتدًا من قمته إلى القاع.. أتحسسه بأطراف أناملي وتؤلمني حوافه الحادة فأجفل..

ربما أكون قد صدمته - عن غير قصد - عندما استقللت سيارة الأجرة.. أو عندما دخلت إلى غرفتي متعجلة ملقية بنفسي على الفراش.. أو ربما كان ذلك الشرخ هنا من الأساس..

قبل حتى أن ألقاك..

أجلس وأكتب إليك خطابي هذا وعقلي لا يتوقف عن التفكير وسؤال ملح يسيطر عليه: هل هذه إشارة من السماء أن شرخنا لن ينصلح أبدًا؟!

هل سيبقى؟!

وختامًا لك ألف سلام..

ومحبة وأشواق وغرام..

من قلب لا يهدأ ولا ينام..

قلب حبيبك..

بقي سؤالي معلقًا في فراغ الغرفة وأنا أنظر نحو بريق الكريستال المشوه بشرخ قبيح.. لكنني أعلم أنه مهما كان قراري فلن أنسى أبدًا عينيك الشبيهتين بأقداح الكريستال..

تحياتي

سارة

تمت

الإسكندرية–30 مايو 2011

أحمد الصايغ..

كتب شخصية "سارة"

أسماء عمر..

كتبت شخصية "إيهاب"



أقداح الكريستال



أحمد الصايغ - أسماء عمر

أيام الحب وأيام العذاب..
وجهان لعملة واحدة

* * *

لو كنت مناضلا شجاعا..
يكشف مكنونات قلبه..
لو قفت أهتف عاليا..
لا للحب..
فليسقط الألم..
ولينتهي العذاب..
و لترحل القلوب..
تائب أنا عنك أيها الحب..

* * *

كل امرأة تنشد الحب..
لكنها تفر منه و كأنه كابوس رهيب
إن خامرها شعور..
بأن محبة حبيبها لها أقل من محبتها له..
تتزعزع ثقتها فيه، و في نفسها..
و يصبح الخوف ملازما للحب..
حتى يأتي اليوم الذي ينهار فيه..

* * *

الحب ذنب كل امرأة..
فلا تعطها ألف سبب لتتوب عنه..
لترفع عن كاهلها عقاب العصيان..



مع ازدياد كم الأعمال التي يبدعها الشباب -خاصة بعد ثورة يناير العظيمة- وفي ظل الظروف الحالية التي تمر بها مصر. أصبح سوق النشر والتوزيع في حالة ضعيفة. خاصة مع استمرار ازدياد أسعار الخامات. واحجام كثير من دور النشر على ممارسة نشاطها بتوسع. وضعف القدرة الشرائية للقارئ المصري. كذلك صارت عملية النشر محفوفة بالمخاطر. التي تخيف طرفيها - الناشر والقارئ - على حد سواء..

وكانت الدار نفسها من الدور التي تأثرت - وبشدة - اقتصاديا. ومع اضطرارها لإغلاق باب تقديم الأعمال هذا العام. فكرنا في حل بديل. هو النشر لمن يستحق.. وتطورت الفكرة كثيرا. إيمانا من دار ليلى (كيان كورب) بأهمية الحركة الثقافية. وحرصا منها على استمرارها في دورها. وإيمانا منها - كما عهدتموها- بالشباب الموهوب..

ليصبح بين أيديكم. هذا الكتاب.

الناشـــر

